قَالَ تَعَالَى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [ق: 1].

قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البروج: 21 – 22].

المُجيد في علوم القرآن المَجيد

تأليف: الدكتور محمد بولقصاع

جامعة غرداية

الإهداء

إلى أولئك الذين أحبُّوا النَّبي ﷺ فنبضت قلوبهم بحبِّه، ولهجت ألسنتهم بالصَّلاة عليه، وامتلأت عقولهم بفكره، وشغلتهم سيرته عن كلِّ سيرة، فآمنوا به وعزَّروه ونصروه واتَّبعوا النُّور الذي أنزل معه.

إلى من أرشداني إلى حبِّ هذا النَّبي العظيم ﷺ والتَّأسي به، وسمَّياني باسمه، فكانا لي نعم المربِّيَيْن، فربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيرا.

إلى زوجي الكريمة التي أعانتني بصبرها وجهدها على طلب العلم، وإلى قرَّة عيني أولادي البررة: مريم، وعبد الرحمن، وإبراهيم الخليل، وعمران.

إلى رفقاء الدرب، إخواني الأساتذة بشعبة العلوم الإسلامية
إلى زملائي الطلبة والطلبات الذين أقبلوا لدراسة علوم الشريعة والتَّفقه فيها

إلى أهل القرآن وخاصَّته الذين يعدلون بالقرآن ويستنيرون بنوره.

إليكم جميعا أهدي عملي هذا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم على من أيَّده الله بالمعجزة الخالدة، وعلى آله وأصحابه الذين حفظوا القرآن في الصُّدور والسُّطور، ومن سار على خطاهم إلى يوم الدين...أما بعد:

فإنَّ القرآن الكريم هو الحجَّة البالغة، والبيِّنة السَّاطعة، والمعجزة الخالدة، وهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه لعباده، من ابتغى الهدي في غيره أضلَّه الله، ومن اعتصم به فقد هُدي إلى صراط مستقيم، وهو الكتاب الذي لا تنفد دُرَرُه، ولا تنقضي عَجَائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يُملّ من قراءته، ولا يُخلق على كثرة الردِّ، من عَلِم عِلْمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عُمل به أُجِر...

والقرآن هو الكتاب المكنون الذي أودع الله فيه من أسرار وكنوز فأفنى العلماء أعمارهم وأوقاتهم تعليمًا وتأليفًا فكشفوا عن أسراره، واستخرجوا كنوزه، ولم يدَعوا دُرَّة من دُرَره إلاَّ وغاصوا لإخراجها، ورفوف المكتبات الإسلامية شاهدة على ذلك، فمنها المطوَّل ومنها المختصر، ومنها الميسَّر في العبارة ومنها الصَّعب، ومنها المستوعب لجلِّ علوم القرآن ومنها المقتصر على بعض المباحث منها، فجزاهم الله عنَّا وعن القرآن خير ما جازى به عباده الصَّالحين.

ولقد شرَّفني الله تعالى بتدريس مادَّة علوم القرآن الكريم لسنوات عديدة، ومع حبّي لكتاب الله تعالى والسَّعي دومًا لفهم معانيه والوقوف على بعض أسراره، ورغبتي الكبيرة في تيسير مباحث علوم القرآن للطلاَّب، فقد عزمت أن أُدْلِيَ بدلوي في هذا العلم لأضيف لَبنة صغيرة في صرحه لإيضاح بعض أبواب علوم القرآن، وصُغْته بأسلوبٍ واضحٍ في العبارة، وترتيبٍ مُحكمٍ دقيق ليتسنَّى لطلاب الشريعة فهمه، ويساعدهم على استيعاب علومه، كما سلكت فيه منهج الاختصار، وسمَّيته بـــ: **المُجيد في علوم القرآن المَجيد**.

وعلوم القرآن الكريم تعدُّ بمثابة مفاتيح لفهم نصوص الوحي، وتسعى إلى بيان مراد الله من الآية، وحيث لا يخفى على أحدٍ أنَّ علوم القرآن الكريم بمعناها العامّ لا عَدَّ لها

ولا حصر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: 89]، ولذا اكتفى المؤلِّف ببيان المقدِّمات الأساسيَّة التي ينبغي لطالب العلم الإلمام بها ليُقْدِم على تدبُّر هذا الكتاب العزيز، ويهتدي إلى معرفته وفهمه فهمًا صحيحًا، ولتحقيق ذلك فقد اشتمل الكتاب على ستَّة عشر مبحثا مبيَّنًا على الوجه الآتي:

المبحث الأول: مدخل تعريفي بـــ" علوم القرآن الكريم".	المبحث الثاني: القرآن الكريم
المبحث الثالث: الوحي.	المبحث الرابع: نزول القرآن الكريم.
المبحث الخامس: تأريخ القرآن الكريم.	المبحث السادس: المكِّي والمدني.
المبحث السابع: أسباب النُّـــزول.	المبحث الثامن: القراءات القرآنية.
المبحث التاسع: المحكم والمتشابه.	المبحث العاشر: النَّاسخ والمنسوخ.
المبحث الحادي عشر: علم المناسبات.	المبحث الثاني عشر: مقدِّمات في التَّفسير.
المبحث الثالث عشر: القصص القرآني.	المبحث الرابع عشر: الإعجاز في القرآن الكريم.
المبحث الخامس عشر: الأمثال في القرآن الكريم.	المبحث السادس عشر: الأقْسَام في القرآن الكريم.

وإنِّي لأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا العمل طلبة العلم فما وجدوا فيه من صواب فمن الله ﷻ وحده، فله سبحانه النِّعمة والمِنَّة، وله الفضل والثَّناء الحسن، وإن كان فيه سهو أو خطأ، أو نسيان فمن نفسي، ومن الشَّيطان، فليتداركوا هذا النَّقص والخطأ بنصحي وبالدَّعوة لي بالخير على ظهر الغيب، فرحم الله عبدًا أهدى إليَّ عُيوبي.

وأسأله تعالى كما منَّ عليَّ بإتمام هذا الكتاب أن يُتِمَّ النِّعمة بقَبوله وينفع به إنَّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير وهو حسبي ونعم الوكيل.

د. محمد بولقصاع

أستاذ التفسير وعلوم القرآن/ جامعة غرداية.

المبحث الأول: مدخل تعريفي بـــ" علوم القرآن الكريم":

مفهوم "علوم القرآن الكريم":

يقول الزَّرقاني: "وإنَّما جُمِعت هذه العلوم و لم تفرد لأنَّه لم يقصد إلى علم واحد يتصل بالقرآن، إنَّما أريد شمول كلِّ علم يخدم القرآن أو يستند إليه، وينتظم ذلك علم التَّفسير، وعلم القراءات، وعلم الرَّسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النُّزول، وعلم النَّاسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدِّين واللُّغة إلى غير ذلك" [1].

وقد جعل العلماء هذه العبارة: «علوم القرآن» اسم علم، يراد به معنًى خاص كما أنَّه يدلُّ على علمٍ خاصٍ، فهو يختصُّ بأنَّه علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتَّصلة بالقرآن من ناحية كلِّية عامَّة.

إذن فعلوم القرآن باعتباره اسمًا لعلم واحد يعني: المباحث الكلِّية التي تتعلَّق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، وغير ذلك [2].

فأنت تلاحظ أيُّها الطَّالب الكريم أنَّ علوم القرآن الكريم جاءت بصيغة الجمع دون الإفراد، وهذا يدلُّك على أنَّها علوم كثيرة ومتنوِّعة تساعدك على فهم أحسنٍ وأقومٍ للقرآن الكريم، ومن هنا فإنَّ كلَّ علم يخدم القرآن ويساعد على فهم مسائله أو أحكامه أو مفرداته يطلق عليه بعلوم القرآن.

وقد يسمِّي البعض علوم القرآن بأصول التَّفسير لأنَّها بمثابة مفاتيح لتفسير كلام الله ﷻ، وبدون هذه العلوم فإنَّ المتعلِّم لن يستطيع تحديد مراد الله تعالى من الآية أو الآيات.

---

[1] ـ الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج1، ص23.

[2] ـ نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط1، مطبعة الصباح، دمشق، 1993م، ص: 7 ـ 8.

حكم تعلُّم علوم القرآن الكريم:

وحكم تعلُّم علوم القرآن الكريم بالنِّسبة لمن سيقبل على القرآن الكريم شرحًا وتفسيرًا وتدبُّرا... يتوجَّب عليه الإلمام أوَّلا بهذه العلوم، لأنَّ تدبر القرآن الكريم واجب علينا ولا يتمُّ تحقيقه إلاَّ بالتَّمكن والتَّضلُّع في علوم القرآن، وما لا يتم الواجب إلاَّ به فهو واجب، ولذلك أطلق بعض العلماء على هذا العلم بأصول التفسير [1]؛ لأنه يتناول المباحث التي لا بدَّ للمفسِّر معرفتها إذا أراد الإقبال على تفسير القرآن الكريم.

وقد جاء الوعيد الشَّديد في الكتاب والسُّنَّة لمن كان يقبل على تفسير كتاب الله من دون علم بهذه العلوم ومن ذلك:

ــ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [هود: 18].

ــ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: 33].

ــ وقوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يونس: 39].

ــ وقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» [2].

موضوع علوم القرآن:

هي مسائلها المتعلِّقة بالقرآن الكريم من أيِّ ناحية من النَّواحي المذكورة في التعريف، كلُّ علم فيما يخصُّ مسائله.

ــ فعلم التفسير: موضوعه: القرآن الكريم من حيث شرح آياته، وبيان معناها.

ــ وعلم القراءات: موضوعه: القرآن الكريم من ناحية لفظه وأدائه.

---

1 ـ ينظر: مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، 2000م، ص: 12.

2 ـ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، الناشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، كتاب أبواب تفسير القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِي الَّذِي يُفَسِّرُ القُرْآنَ بِرَأْيِهِ، ج5، ص49، رقم الحديث: 2950. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

وهكذا سائر علوم القرآن الباقية موضوعها كلُّها «القرآن الكريم» ولكن بالحيثيات المختلفة التي تتعلَّق بكلِّ فنٍّ على حدة [1].

نشأة علوم القرآن:

ترتبط نشأة علوم القرآن منذ بدء نزول القرآن الكريم على سيِّدنا محمَّد ﷺ إذ كان يتلوه على النَّاس، ويبيِّن لهم أحكامه، ويأمر أصحابه بحفظه وكتابته... وتطوَّرت تلك النشأة مع تطور الحياة العلمية والثقافية للأمة.

فبعض علوم القرآن الكريم ظهرت منذ فجر الدَّعوة الإسلامية فهاهو النَّبي ﷺ يأمر أصحابه بكتابة القرآن بقوله:« لَا تَكْتُبُوا عَنِّي، وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ» [2]، ومثله أيضًا كان النَّبي ﷺ يعلِّم أصحابه القراءات التي نزل بها القرآن، ففي القصَّة المشهورة أنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ، يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا، وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ، ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا، فَقَالَ لِي: «أَرْسِلْهُ»، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اقْرَأْ»، فَقَرَأَ، قَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ»، ثُمَّ قَالَ لِي: «اقْرَأْ»، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: «هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ» [3].

وقد كان النَّبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يعلمون متى نزلت الآية الفلانية، وأين نزلت فهذا له علاقة بعلم المكي والمدني، كما كان النَّبي ﷺ عندما يُسْأل عن سؤال فيجيب بآية أو أكثر، وتقع حادثة كحادثة الإفك، أو غزوة كغزوة بدر فتترل بعدها آيات وهذا ما

---

[1] ـ ينظر: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة، ج1، ص55.

[2] ـ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت، كتاب الزهد والرقائق، بَابُ التَّثَبُّتِ فِي الْحَدِيثِ وَحُكْمِ كِتَابَةِ الْعِلْمِ، ج4، ص2298، رقم الحديث: 3004.

[3] ـ البخاري محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر،ط1، دار: طوق النجاة، 1422هـ، كتاب الخصومات، بَابُ كَلاَمِ الخُصُومِ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ، ج3، ص122، رقم الحديث: 2419.

يعرف بسبب النزول، حتَّى أنَّ ابن مسعود ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا فِي كِتَابِ اللهِ سُورَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ نَزَلَتْ، وَلَا فِيهِ آيَةٌ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ»[1].

التصنيف في علوم القرآن الكريم:

ولأهمِّية هذا العلم وارتباطه الوثيق بكتاب الله ﷻ فقد كثر التَّأليف فيه قديما وحديثا، وقد جاءت طبيعة التأليف في هذا العلم على ثلاثة أنماط وهي كالآتي:

1. ــ النَّمط الأوَّل: أنَّ بعض المفسِّرين يذكرون مباحث هامَّة في علوم القرآن في مقدِّمات تفاسيرهم، ومن هؤلاء:

أ- الإمام الطبري في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: جامع البيان في تأويل آي القرآن.

ب- الإمام القرطبي في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: الجامع لأحكام القرآن.

ت- القاسمي محمد جمال الدين في مقدِّمة تفسيره المسمَّى: محاسن التَّأويل.

ث- الطاهر ابن عاشور في مقدِّمة تفسيره المسمَّى اختصارا: التَّحرير والتَّنوير.

2. ــ النَّمط الثَّاني: كتب دوَّنت كلَّ علم على شكل مستقلٍّ، ومن جملتها:

أ- أسباب النُّزول لعليٍّ بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة 234 هــ.

ب- النَّاسخ والمنسوخ، والقراءات لأبي عُبَيْد القاسم بن سَلَام المتوفى سنة 224 هــ.

ت- مُشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة 276 هــ.

ث- غريب القرآن لأبي بكر السَّجِسْتاني المتوفى سنة 330 هــ.

ج- إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني المتوفى سنة 403 هــ.

ح- ومن المتأخِّرين: إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرَّافعي.

خ- "التَّصوير الفنِّي في القرآن" و"مشاهد القيامة في القرآن" للشَّهيد سيِّد قطب.

3. ــ النَّمط الثَّالث: التَّصانيف التي تجمع علوم القرآن المختلفة في مؤلَّف واحد، ومن بينها:

أوَّلا: من المؤلَّفات القديمة:

أ- البرهان في علوم القرآن لعلي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي المتوفى سنة: 430هــ [1].

---

[1] ـ الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة، ج9، ص73، رقم الحديث: 8432.

ب- فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة 597هـ.

ت- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794هـ.

ث- الإتقان في علوم القرآن للإمام جلال الدين عبد الرحمن السُّيوطي المتوفى سنة 911هـ، وقد بناه على كتاب البرهان، وأضاف إليه فوائد وبحوثا.

ثانيا: من المؤلَّفات المعاصرة ما يأتي:

أ- مناهل العرفان في علوم القرآن للعلّامة الكبير محمد عبد العظيم الزّرقاني [2].

ب- مباحث في علوم القرآن للأستاذ الدكتور صُبْحي الصَّالح.

ت- إتقان البرهان في علوم القرآن لفضل حسن عبَّاس.

ث- مباحث في علوم القرآن لمنَّاع بن خليل القطَّان.

---

1 - يرى بعض الباحثين أنَّ أوَّل ظهور لمصطلح علوم القرآن كمركب إضافي ظهر على يد الإمام الحوفي في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس [ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج1، ص39. وينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص10].

2 - يعد هذا الكتاب من أفضل الكتب وأفيدها على الإطلاق.

المبحث الثاني: القرآن الكريم.

التعريف بالقرآن:

أ- لغة:

لقد ذهب العلماء في أصل كلمة "القرآن" مذاهب فمنهم من رأى بأنَّه علمٌ مثل الإمام الشَّافعي حيث قال: "القرآن اسم وليس بمهموز، و لم يؤخذ من «قرأت»، ولو أخذ من «قرأت» لكان كلُّ ما قُرِئ قرآنًا، ولكنَّه اسم للقرآن، مثل: التَّوراة والإنجيل"[1].

ومنهم من يرى بأنَّ كلمة القرآن مشتقَّة، وأنَّ أصل اشتقاقها غير مهموز أي من: "قَرَنَ"، وممن قال بذلك: الفرَّاء حيث يرى بأنَّه مشتقٌّ من القرائن جمع قرينة، لأنَّ آياته يصدّق بعضها بعضًا، ويُشابِه بعضها بعضًا.

أمَّا الأشعري فيرى بأنَّه مشتقٌّ من قَرَنْت الشَّيء بالشَّيء إذا ضَمْمت أحدهما إلى الآخر، وسمِّي به لقران السُّور والآيات والحروف فيه.

أمَّا من قال بأنَّه مشتقٌّ وأصل اشتقاقه مهموز أي من: "قَرَأَ" الزَّجَّاج حيث قال: إنَّ لفظ "القرآن" مهموز على وزن فعلان، مشتقٌّ من القُرء بمعنى الجمع، ومنه قَرَأَ الماء في الحوض إذا جمعه؛ لأنَّه جمع ثمرات الكتب السَّابقة.

اللِّحْيَانِيُّ حيث قال: إنَّه مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتقٌّ من قرأ بمعنى تلا، سمِّي به المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر [2].

ولعلَّ الرَّاجح من الأقوال هو الرَّأي الأخير الذي يرى بأنَّ القرآن مشتقٌّ من قرأ بمعنى تلا، حيث أنَّ القرآن الكريم نفسه يؤيِّد هذا المعنى وذلك في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: 16 – 18]، فقد ذكر الله سبحانه القراءة في الآية وهي بمعنى التِّلاوة وأتبعها بذكر المصدر، ومن هنا فالقرآن

---

[1] - الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي (المتوفى: 463هـ)، تاريخ بغداد، حققه: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م، ج2، ص392.

[2] - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م، ج1، ص182.

من شأنه أن يقرأ ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [المزمل: 20]، ولا عجب أن نجد أنَّ أوَّل كلمة نزلت على الرَّسول ﷺ هي: اقرأ.

وقد خُصَّ القرآن بالكتاب المنزَّل على محمَّد ﷺ فصار له كالعلم الشَّخصي، ويمكن أن يطلق على كل آية من آياته قرآنا، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صحَّ أن تقول إنَّه يقرأ القرآن مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ ﴾ [الأعراف: 204][1].

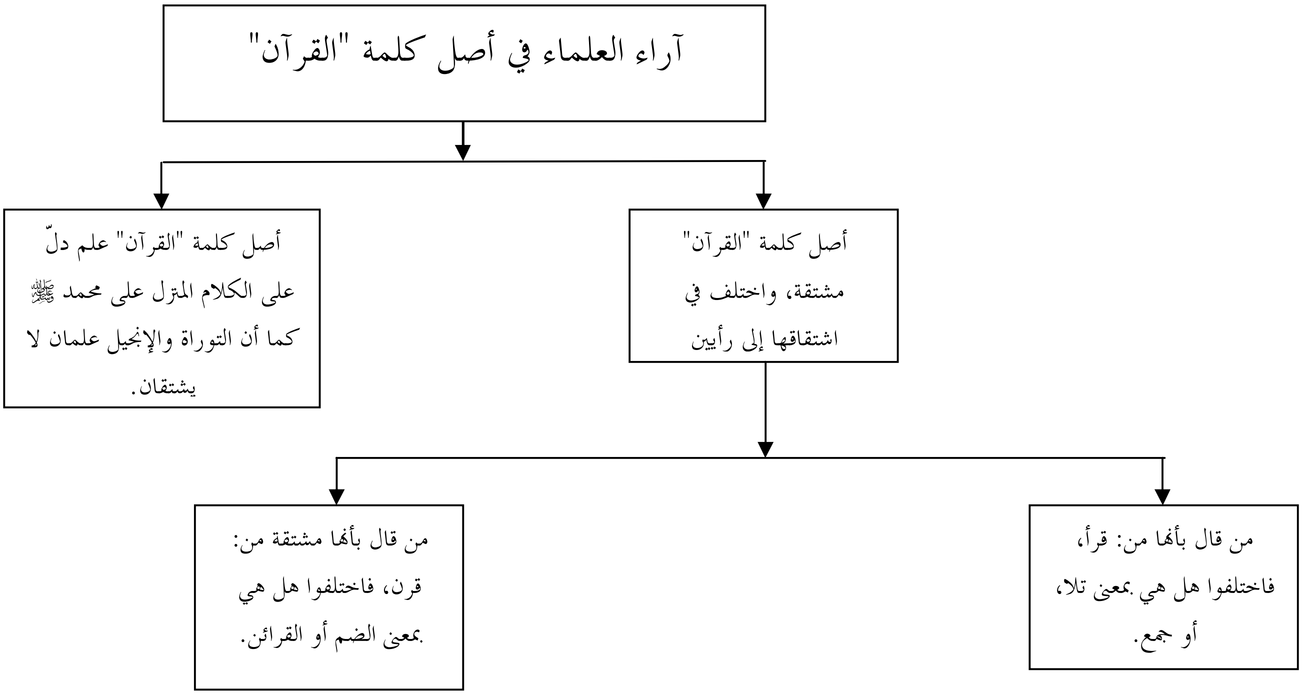

ب- اصطلاحا:

لعلَّ التَّعريف الجامع والمانع للقرآن الكريم اصطلاحًا هو: " كلام الله الـــمُعجز المنزَّل على محمَّد ﷺ، المتعبَّد بتلاوته، المنقول عنه بالتواتر، المكتوب في المصاحف" [2].

شرح قيود التَّعريف:

[1] - ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، 2000م، ص16.

[2] - ينظر: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 21. ويكاد يكون هذا التعريف هو المتفق عليه بين الأصوليين والفقهاء وعلماء العربية.

ـــ كلام الله: القرآن الكريم كلُّه كلام الله لفظًا ومعنًى، فيخرج بذلك كلام كلٍّ من سواه سبحانه، سواء كان كلام الملائكة كقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، أو كلام البشر: ﴿ قَالَ نُوحٌ ﴾، أو كلام الجن: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾، أو كلام الحيوانات: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾... فما كان في القرآن من كلام منسوب إلى المخلوقات فهو في الحقيقة كلام الله أجراه على ألسنة هؤلاء، ولذلك نقول على سبيل المثال: قال الله تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان: 30].

والقرآن الكريم نفسه ينصُّ على أنَّ القرآن كلام الله كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة: 6].

ـــ المُعجز: والمعجزة هي: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله صِدقًا لدعواهم [1]، وإعجاز القرآن: معناه: إظهار صدق النبيّ ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة- وهي القرآن- وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك.

وذلك أنَّ القرآن قد سما في علوِّه إلى شأْوٍ بعيدٍ بحيث تعجز القدرة البشرية عن الإتيان بمثله، سواء كان هذا العلوُّ في بيانه وبلاغته، أو تشريعه، أو مغيِّباته، أو الحقائق العلمية التي يشير إليها في نصوصه[2].

فقولنا القرآن معجز قَيْدٌ في التعريف يخرج بذلك الكتب السماوية الأخرى، كما يُخرج الأحاديث النبوية لقدرة البشر بأن يأتوا بكلام يماثل كلام النَّبي ﷺ وما أكثر الأحاديث الموضوعة المنسوبة إلى النَّبي ﷺ.

---

[1] - ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 2005م، ص18.

[2] - ينظر: مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م، ص151.

ـــ المنزَّل: قيدٌ يُخْرِج كلام الله الذي استأثر به سبحانه في علمه و لم ينـــزّل: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: 109]، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: 27].

وتقييد المنزَّل بكونه "على محمد ﷺ " يُخرج ما أُنْزِلَ على الأنبياء قبله كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

ـــ "المتعبَّد بتلاوته" معناه أنَّ تلاوته عبادة، وأنَّ الصَّلاة لا تُقبل إلا بقراءة القرآن، وبهذا القيد تخرج جميع القراءات الشَّاذة، والأحاديث القدسية، كما تخرج الأحاديث النَّبوية التي هي وحي من الله بالمعنى[1].

كما يفهم من هذا القيد أيضًا أنَّ تلاوة القرآن عبادة؛ إذ يحصل القارئ على عشر حسناتٍ لكلِّ حرفٍ تَلاه من القرآن كما ثبت ذلك في كتب الصِّحاح، ولا شكَّ أيضًا أنَّ الأحاديث النَّبوية يُؤجر صاحبها على قراءتها جملة.

ـــ المنقول بالتَّواتر: والنَّقل بالتواتر هو الذي يرويه جمع يستحيل تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم من أوَّل السَّند إلى منتهاه [2]، والقرآن الكريم وصل إلينا بهذا الطَّريق وأكثر، فقد أُنزل من ربِّ العالمين عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام على قلب النَّبي محمَّد ﷺ وبلَّغه إلى الجمع الغفير من أصحابه طيلة سنين، ثم بلَّغه أصحابه من بعده إلى التَّابعين ثم إلى من بعدهم إلى أن وصل إلينا محفوظا في الصُّدور والسُّطور ولله الحمد، يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ ﴾ [الشعراء: 192 – 194].

ويخرج بهذا القيد: ما كان غير متواتر من القراءات كالمشهورة والشاذة، مثل قراءة عبد الله بن مسعود (متتابعات) عقب قوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ [المائدة: 89]، فهذه القراءة لا تعدُّ قرآنا، وإنَّما يمكن الاستعانة بها في مجال التَّفسير.

[1] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص17.

[2] ـ ينظر: محمود طحان، تيسير مصطلح الحديث، ط10، مكتبة المعارف، 2004م، ص23.

ـــ المكتوب في المصاحف: وهذه مزيَّة للقرآن أنَّه دوِّن وحُفِظ مكتوباً منذ عهد النَّبي ﷺ وبإشرافه وحضرته، ثمَّ لما قام الصَّحابة ﭫ بجمع القرآن في عهد أبي بكر الصَّديق ﭬ، ونُسِخت المصاحف في عهد عثمان ﭬ، أجمع الصَّحابة على تجريد المصحف من كلِّ ما ليس قرآنا، وقالوا: جرّدوا المصاحف، فمن ادَّعى قرآنية شيء ليس في المصاحف فدعواه باطلة كاذبة، وهو من المفترين على الله وعلى رسوله[1].

فهذا قيد يخرج كلّ ما ليس بقرآن من القرآن، ويُبْقِي على النَّصِّ القرآني فقط ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

أسماء القرآن الكريم:

لقد اختار الله لوحيه أسماءً عديدة، كلُّ اسم يحمل أسرارًا كثيرة وجليلة، حيث يشير كلٌّ منها إلى خصائص القرآن، أو فضائله، أو أهدافه، أو ثمراته... ومن أبرز أسماء القرآن ما يأتي:

1) ـــ الكتاب: وهو مصدر لكتب بمعنى: الجمع والضَّمُّ، أريد به القرآن لجمعه العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه، ولأنَّ حروفه وكلماته وجُمله تجتمع على ترتيب ونظم ونسق معيَّن ليخرج قرآنا، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 2]، وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: 92]، وقال أيضًا: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف: 1].

وقد غلب على أسمائه اسمين هما: القرآن والكتاب، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّ من حقِّ القرآن العناية بحفظه في موضوعين لا في موضع واحد، أعني أنَّه يجب حفظه في الصُّدور وهذا إشارة إلى تسميته قرآن، وفي السُّطور وهذا بالإشارة إلى تسميته بالكتاب، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتَّى يوافق الرَّسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وُضع عليها أوَّل مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتَّى يوافق ما هو عند الحفَّاظ بالإسناد الصَّحيح المتواتر.

---

[1] ـ ينظر: نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط1، مطبعة الصباح، دمشق،.1993م، ص11.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمَّة المحمَّدية اقتداءً بنبيِّها بَقِي القرآن محفوظًا في حرز حَرِيز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفَّل بحفظه حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: 9]، فلم يتطرَّق إليه الرَّيب والتَّحريف والتَّبديل بخلاف ما سبقها من الكتب السَّماوية فقد غيِّرت وبدِّلت؛ لأنَّ الله لَّما أوكل حفظها لعلمائهم حرَّفوها واشتروا بها ثمنًا قليلاً، يقول تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة: 44]، أي: بما طلب إليهم حفظه[1].

2) ــ الفرقان: ويعني أنَّه الكلام الذي يفرِّق بين الحقِّ والباطل، فالقرآن فرَّق بين العقائد الصَّحيحة والفاسدة، وبين الأخلاق الحميدة والذَّميمة، وبين الحلال والحرام، والكفر والإيمان، يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ [آل عمران: 4]، وقال: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ﴾ [الفرقان: 1].

3) ــ الذِّكر: سمِّي به القرآن، لاشتماله على المواعظ والزَّواجر، فهو دائم التَّذكرة بالمصير والوعد والوعيد كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ ﴾ [الحاقة: 48]، وقيل: الذِّكر بمعنى الشَّرف والمترلة الرَّفيعة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ ﴾ [الزخرف: 44]، أي: شرف لكم ما إن تمسَّكتم به، وقوله أيضًا: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ ﴾ [الأنبياء: 10].

ومما نلحظه على هذه الأسماء أنَّ اسم القرآن يبقى في طليعة هذه الأسماء؛ لأنَّه لا يشارك في تسميته أيُّ كتاب سماويٍّ آخر، فهو عَلَمٌ على الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، بخلاف الأسماء الأخرى فإنَّها تشترك مع الكتب السَّماوية الأخرى، فالتَّوراة سمَّاها الله في القرآن الكتاب والفرقان كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [البقرة: 35]، والإنجيل سمَّاه الله الهدى والنُّور كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ ﴾ [المائدة: 46].

[1] ـ ينظر: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، 2005م، ص 42.

أوصاف القرآن الكريم:

إنَّ من الأخطاء الشَّائعة المتناقلة بين بعض العلماء أنَّهم لم يفرِّقوا بين الاسم والوصف، فنجدهم يطلقون على الأوصاف أسماءً، فنأخذ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: 77]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، فالكلمتان في الآيتين الكريمتين: كريمٌ وعظيمٌ ليستا سوى صفتين للقرآن، ومن هنا لا نأخذ بقول من يقول إنَّهما من أسماء القرآن الكريم.

فكثيرا ما يُذكر اسم القرآن أو الكتاب ثم يوصف بأحد هذه الأوصاف الآتية:

ـــ عزيز: كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ [فصلت: 41].

ـــ مجيد: كقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [البروج: 21].

ومن جملة أوصافه النُّور: لأنَّ القرآن بمثابة نور يكشف الحقائق ويجْلوها ببيانه النَّاصع، وبرهانه السَّاطع، ويجعلنا ندرك غوامض الأمور، كما يرشد النَّاس ويخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، يقول تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: 15]، وقال أيضا: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: 174].

ومن أوصافه كذلك: أحسن الحديث، بشرى، بشير ونذير، بصائر، بيان، بلاغ، تذكرة، التَّنزيل، حبل الله، الحقُّ، حكمة، حكيم، رحمة، الرُّوح، الشِّفاء، الصِّدق، الصِّراط المستقيم، العدل، العروة الوثقى، العلم، عَلِيٌّ، الفصل، القصص، القول، القيِّم، كلام الله، مبارك، المثاني، مهيمن، موعظة، النَّبأ العظيم، هادي، هدى.... وإذا كثرت أسماء الشَّيء وتعدَّدت أوصافه فهذا دليل على عظم ذلك الشَّيء ومنزلته الرَّفيعة.

الفرق بين القرآن الكريم وبين الكتب السماوية الأخرى:

نحن كمؤمنين نؤمن بجميع الكتب السماوية المنزّلة على طائفة من الرُّسل، فنؤمن بالتوراة المنزَّلة على موسى، وبالإنجيل المنزَّل على عيسى، وبالزَّبور المنزَّل على داود عليهم وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم، وغيرها من الكتب المنزَّلة وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

إلاَّ أنَّ هناك فروقٌ جوهريَّة بين القرآن الكريم وبين الكتب السماوية الأخرى منها:

1) ــ أنَّ القرآن الكريم معجزة خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فهو يشمل الإعجاز والدِّين معًا، بخلاف الكتب السَّماوية السَّابقة فليست محلّ إعجاز، فمعجزات الأنبياء السَّابقين مستقلَّة عن الكتب التي أوحيت إليهم، فعصى موسى عليه السلام معجزة وهي مستقِلَّة عن التَّوراة.

2) ــ أنَّ القرآن الكريم تولَّى الله عز وجل حفظه بنفسه فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9] فلم يتبدل أو يتغير، بخلاف الكتب السماوية فقد أوكل الله حفظها للربَّانيِّين والأحبار ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: 44]، ولكنهم بدَّلوا فيها وغيَّروا وحرَّفوا، يقول تعالى في شأنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة: 13].

3) ــ أنَّ هذا القرآن الكريم ناسخٌ للشَّرائع السَّماوية السَّابقة؛ بل ومهيمنٌ عليها، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: 48].

4) ــ أنَّ القرآن الكريم متَّفق مع جميع الكتب السَّماوية الأخرى في جانب العقائد والأخلاق لأنَّ هذين الأخيرين لا يتبدَّلان ولا يتغيَّران، فالإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبالملائكة... وكذا التَّحلِّي بالصبر، وكظم الغيظ، والحِلم، والصَّفح وغيرها من الأخلاق الحميدة، والأمر بالتَّخلي عن الكذب، والفسق، وتطفيف الكيل والميزان، وتحريم الزِّنا وإتيان الذُّكران... أمور متَّفق عليها بين جميع الدِّيانات فلا تقبل التعارض ولا النَّسخ فيما بينها، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: 13]، بخلاف الشَّرائع فمختلف فيها، لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: 48].

5) ــ أنَّ الكتب السَّماوية السَّابقة كانت لأقوام وأمم تختصُّ بهم، بيد أنَّ القرآن الكريم لا يختصُّ بزمان ومكان معيَّن فهو للثَّقلين عامَّة، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1].

الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي:

هناك عدَّة فروق بين القرآن الكريم والحديث القدسي أهمُّها:

1- أنَّ القرآن الكريم تحدَّى الله به الإنس والجنَّ على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، ولا يزال التَّحدِّي به قائمًا، فهو معجزة خالدة إلى يوم الدِّين، والحديث القدسي لم يقع به التَّحدِّي والإعجاز.

2- القرآن الكريم لا يُنْسَب إلا إلى الله تعالى، فيقال: قال الله تعالى على صيغة الجزم، بينما الحديث القدسي -كما سبق- قد يُرْوَى مضافًا إلى الله وتكون النِّسبة إليه حينئذ نسبة إنشاء فيقال: قال الله تعالى، أو: يقول الله تعالى، وقد يُرْوَى مضافًا إلى رسول الله ﷺ وتكون النسبة حينئذ نسبة إخبار لأنَّه عليه السلام هو المُخْبِرُ به عن الله، فيقال: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل.

3- القرآن الكريم جميعه منقول بالتَّواتر، فهو قطعي الثُّبوت، والأحاديث القدسية أكثرها أخبار آحاد، فهي ظنِّية الثبوت، وتخضع لميزان التَّصحيح والتَّضعيف، فقد يكون الحديث القدسي صحيحًا، وقد يكون حسنًا، وقد يكون ضعيفًا.

4- القرآن الكريم من عند الله لفظًا ومعنًى، فهو وحي باللَّفظ والمعنى، والحديث القدسي معناه من عند الله، ولفظه من عند الرسول ﷺ على الصَّحيح فهو وحي بالمعنى دون اللَّفظ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3 – 4]، ولذا أجاز المحدِّثون روايته بالمعنى.

5- القرآن الكريم مُتَعَبَّدٌ بتلاوته، فهو الذي تتعيَّن القراءة به في الصَّلاة، لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: 20]، وقراءته عبادة يُثاب عليها القارئ، ولو يفهم ما يقرؤه بدليل ما جاء في الحديث الصَّحيح: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ "ألم" حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ

حَرْفٌ»[1]، فرتَّب النَّبي ﷺ على "ألم" ثلاثون حسنة رغم أنَّها من المتشابه الذي لا يعلم حقيقته إلاَّ الله سبحانه وتعالى، فلا يمكن لعالم مهما بلغ علمه أن يجزم بمرادها.

أمَّا الحديث القدسي فلا يُقرأ بشيء منه في الصَّلاة مطلقًا، لكنَّ الله يثيب على قراءته خلاف الصَّلاة ثوابًا عامًّا، فلا يصْدُق فيه الثَّواب الذي ورد ذكره في الحديث؛ لأن ذلك يختصُّ بالقرآن.

وما قيل في الحديث القدسي يقال في الحديث النَّبوي إلا أنها يفترقان في كون الحديث القدسي ينسب إلى الله تعالى، أمَّا الحديث النَّبوي فينسب إلى كلِّ ما صدر عن النَّبي ﷺ من قولٍ، أو فعلٍ أو تقريرٍ، أو صفةٍ خَلْقية أو خُلُقية.

واجبنا تجاه القرآن الكريم.

لقد جاءت نصوص الوحي من الكتاب والسنَّة متضافرة على وجوب الاعتناء بهذا الكتاب العظيم، ومن ألْزَم الجوانب التي يُعتنى بها ما يأتي:

1. ـــ تلاوته: والتِّلاوة والتَّجويد في الاصطلاح هي بمعنى واحد ونقصد بها: "إعطاء كلِّ حرف حقَّه ومستحقَّه مخرجًا وصفةً، وقفًا وابتداءً من غير تكلُّف ولا تعسُّف"[2].

ولهذا يكون القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد في الوجود الذي يجب أن يُقرأ بطريقة معيَّنة على وفق قواعد وضوابط حيث تنطق كلُّ كلمة منه بتمام مخارجها وحروفها؛ بل كلُّ حرف منها، ومن جملة الأدلَّة الآمرة بتلاوة هذا الكتاب ما يأتي:

ـــ قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: 4]، ورتِّل فعل أمر يفيد الوجوب لأنَّه لم توجد قرينة تصرفه عن الوجوب إلى غيره، وقوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [العنكبوت: 45]، وقوله أيضا: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ

---

[1] ـ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه أحمد محمد شاكر وآخرون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م، أبواب فضائل القرآن، بَابُ مَا جَاءَ فِيمَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنَ القُرْآنِ مَالَهُ مِنَ الأَجْرِ، ج5، ص175، رقم الحديث: 2910.

[2] ـ معنى: حق الحرف: صفاته اللازمة، ومستحقه: صفاته العارضة. [ينظر: أحمد خالد شكري وآخرون، المنير في أحكام التجويد، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط11، المطابع المركزية، عمّان، 2007م، ص:12.

﴿ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ ﴾ [النمل: 91 – 92]، فالآية فيها أمر للنبي ﷺ بأن يعبد الله وحده وأن يتلوَ القرآن، ونحن له بالتَّبع.

ـــ أمَّا من السنة: فعن ابن مسعود رضي الله عنه « أنَّه كان يُقْرِئُ الْقُرْآنَ رَجُلًا فقَرَأَ الرَّجُلُ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾[التوبة: 60] مُرْسَلَةً، فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "مَا هَكَذَا أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا:﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ ﴾[التوبة: 60] فَمَدَّدَها»[1].

ـــ أما عن فضائل تلاوة القرآن فالأحاديث متواترة في هذا، خذ مثلا قوله ﷺ: « يُقَالُ – يَعْنِي لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ –: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا»[2].

2. ـــ تدبُّره: والتَّدبُّر هو: "النَّظر في إدبار الأمور وعواقبها، وتدبُّر الكلام هو النَّظر والتَّفكر في غاياته ومقاصده التي يرمي إليها"[3]، يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: 29]، يقول القرطبي: "وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن"[4]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد: 24]، وقوله أيضا: ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾ [المؤمنون: 68]. فهذه الآيات وغيرها تُوجِب علينا أن لا نتوقَّف عند ظاهر النَّص؛ بل لا بدَّ من الغوص والبحث في أعماق الآيات لاستخراج دُرَرِها

---

[1] ـ الطبراني سليمان بن أحمد(ت: 360هـ)، المعجم الكبير، ط1، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، 2006 م، ج9، ص139، رقم الحديث: 8677. قال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله ثقات. [الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان(ت: 807هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حققه: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994 م، باب القراءات، ج7، ص 155، رقم الحديث: 11596].

[2] ـ الترمذي محمد بن عيسى(ت: 279هـ)، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م، أبواب فضائل القرآن، ج5، ص27، رقم الحديث: 2914. قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

3 ـ محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم [تفسير المنار]، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ج5، ص233.

[4] ـ القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، حققه: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م، ج15، ص192.

وكنوزها، وذلك بالنَّظر إلى سوابقها ولواحقها، وأسبابها ومراميها، والنَّظر والتَّفكُّر في غاياتها ومقاصدها التي ترمى إليها.. وهكذا.

3. ـــ حفظ قسطٍ من القرآن: على المسلم أن يحفظ شيئًا من كلام الله ﷻ ليتعبَّد به في الصَّلاة وغيرها، وعليه أن يجعل قدوته في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان يحفظ القرآن كلَّه غيبًا، فقد ثبت عنه أنَّه كان يدارس القرآن ويعرضه على جبريل، وكان هذا الحفظ من قبل النبي ﷺ من تمام إنجاز وعده تعالى له وذلك في قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى: 6]، وقوله أيضا: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: 17].

وقد أثنى الله تعالى في كتابه على الذين كانت صدورهم أوعية حافظة للقرآن الكريم فقال: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[العنكبوت: 49].

وفي المقابل نجد التَّرهيب والوعيد الذي ورد في السنَّة النَّبوية لكلِّ من لم يحفظ شيئا من القرآن، أو حفظ شيئا ثمَّ ضيَّعه ونسيَه، فمن الأوَّل قوله ﷺ:«إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ»[1]، أمَّا عن وعيد من حفظ شيئا من القرآن ثم ضيَّعه فقد روي عنه ﷺ أنَّه قال: «مَا مِنَ امْرِئٍ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ يَنْسَاهُ، إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْذَمَ»[2].

ولاجتناب الوقوع في هذا الوعيد فإنَّ النَّبي ﷺ قد أرشدنا إلى مدارسة القرآن وتخصيص وقتٍ لحفظه فقال: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[3].

---

[1] ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، 2001 م، مسند عبد الله بن العباس، ج3، ص417، رقم الحديث: 1947.

[2] ـ أبو داود سليمان بن الأشعث السّجِسْتاني (ت: 275هـ)، سنن أبي داود، حققه، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، بَابُ التَّشْدِيدِ فِيمَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، ج2، ص75، رقم الحديث: 1474.

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابُ اسْتِذْكَارِ الْقُرْآنِ وَتَعَاهُدِهِ، ج6، ص193، رقم الحديث: 5033.

4. ــ العمل بالقرآن: وهي الثَّمرة والغاية المرجوَّة من نزوله؛ لأنَّ القرآن نزل ليُعمل به لا لتُزيَّن به الجدران والأسقف في المساجد والمنازل، وحتى يكون العمل بالقرآن موافقًا لما يريده الله ﷻ منَّا لا بدَّ أن يُسبق بفهم صحيح مبنيٍّ على قواعد وأصول تَضبط الفهم الصَّحيح لكتاب الله ﷻ.

وقد تضافرت النُّصوص بوجوب العمل بتعاليم القرآن، كما حذَّرت من عواقب هجرانه من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، يقول ابن كثير: "وَتَرْكُ [عِلْمِهِ وَحِفْظِهِ أَيْضًا مِنْ هُجْرَانِهِ، وَتَرْكُ] الْإِيمَانِ بِهِ وَتَصْدِيقِهِ مِنْ هُجْرَانِهِ، وَتَرْكُ تَدَبُّرِهِ وَتَفَهُّمِهِ مِنْ هُجْرَانِهِ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ مِنْ هُجْرَانِهِ، والعدولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ -مَنْ شِعْرٍ، أَوْ قَوْلٍ، أَوْ غِنَاءٍ، أَوْ لَهْوٍ، أَوْ كَلَامٍ، أَوْ طَرِيقَةٍ مَأْخُوذَةٍ مِنْ غَيْرِهِ -مِنْ هُجْرَانِهِ"[1].

5. ــ تبليغه للنَّاس: لقد ورد الوعيد الشَّديد في كتاب الله ﷻ، وفي سنَّة رسول الله ﷺ على كلِّ من كتم شيئًا من العلم الشَّرعي ولم يبلِّغه مع علمه به، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]، ومن السُّنَّة قوله ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ»[2].

واجب للبحث:

ــ اذكر بعضا من فضائل القرآن سوءا التي ذكرت في القرآن أو التي ثبتت بالأحاديث النبوية.

ــ هناك آداب على قارئ القرآن أن يأتي بها سواء قبل التلاوة، أو أثناءها، اذكر أهمها.

1 - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج6، ص108.

2 - الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، ج4، ص326، رقم الحديث: 2649.

المبحث الثالث: الوحي.

لا تزال ظاهرة الوحي مثار جدلٍ، ومحلَّ تشكيك لدى الكثير من النَّاس، فمنهم من أنكره، ومنهم من تعجب من حدوثه... يقول تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: 2]، ويقول أيضا: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ﴾ [الأنعام: 124].

ولا غرابة أنْ نجد الإمام البخاري قد افتتح صحيحه بحديث بدء الوحي؛ لأنَّ فيه إشارة واضحة منه إلى أنَّ الإيمان بظاهرة الوحي هو إيمان بمقتضياته والعكس كذلك، فمن لم يؤمن بالوحي فبالتَّبع لن يؤمن بمضامينه ومستتبعاته، فما هو مفهوم الوحي يا ترى؟

تعريف الوحي:

لغة: يقال: وحيت إليه وأوحيت: إذا كلَّمته بما تخفيه عن غيره، والوحي: الإشارة السَّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوت مجرَّد، وبإشارة ببعض الجوارح.

والوحي مصدر، ومادَّة الكلمة تدلُّ على معنيين أصليين هما: الخفاءُ والسُّرعةُ، ولذا قيل في معناه: الإعلام الخفيُّ السَّريع الخاص بمن يوجَّه إليه بحيث يخفى على غيره، وهذا معنى المصدر، ويُطلق ويُراد بالوحي الشّيء الموحى (اسم المفعول)، وهو: "كلامُ الله المنزّل على نبي من أنبيائه" (1).

وبهذا المفهوم اللُّغوي للوحي جاء استعمال القرآن الكريم لها في أكثر من موضع من ذلك:

ـــ الإلهام الفطري للإنسان، كالوحي إلى أُم موسى بشكل خفي وسريع: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ [القصص: 7].

ـــ الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النَّحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: 68].

---

1 ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 28.

ـــ الإشارة السَّريعة على سبيل الرَّمز والإيحاء كإيحاء النبي زكريا عليه السلام إلى قومه بخفَّة وسرعة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11].

ـــ وحي الشياطين إلى أوليائهم وهي بمعنى الوسوسة لهم، وهو أمرٌ خفيٌّ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121].

ـــ وحي الله إلى ملائكته أي: ما يأمرهم به سبحانه وتعالى من أوامر وهو كذلك أمر في غاية الخفَّة والسُّرعة: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: 12].

اصطلاحا:

هو: تكليم الله سبحانه وتعالى لمن اختاره من عباده بإحدى طرق الوحي المذكورة في أواخر سورة الشورى[1].

وللوحي الشَّرعي قيودٌ وضوابط تخصِّصه عن الإطلاق اللُّغوي وأهمُّها ما يأتي:

ـــ أنَّ له مصدر أساسي واحد، وهو من قبل الله عز وجل، ويدلُّ على ذلك مجيء لفظة "أوحينا" بنون العظمة التي هي من أفعال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: 163 - 164]. فالآيتان تنصَّان على أنَّ هؤلاء الأنبياء وغيرهم مصدر تلقيهم الوحي هو من قِبل الله عز وجل وحده.

ـــ مُستقبِل الوحي هو رسول مختار من عند الله عز وجل ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: 124].

ـــ الشَّيء الموحي به من قبل الله عز وجل إلى الرَّسول هو الذي يراد تبليغه للنَّاس ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: 67].

ـــ له كيفية خاصة تربط المصدر بالمُستقبل وهو ما يُعرف بأنواع الوحي وصوره.

---

1 - عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة، ص28.

أنواع وحي الله إلى أنبيائه وصوره:

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: 51].

دلّت هذه الآية الجامعة على كيفيات الوحي وصُوَره، وهي كالآتي:

1. ــ عن طريق الوحي: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ "وهو الإعلام في خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرُّؤيا المنامية" [1]، ومثاله الرُّؤيا التي رآها يوسف عليه السلام في منامه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: 100]، ورؤيا إبراهيم في ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 102]، ورؤيا الرَّسول ﷺ في منامه وهو يدخل المسجد الحرام آمنًا: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27].

2. ــ عن طريق الإسماع من وراء حجاب ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ أي: حاجز، بأن يسمع النَّبي كلامًا دون أن يرى من يكلِّمه، ومثاله: تكليم الله عزّ وجلّ لسيِّدنا موسى عليه السلام من وراء حجاب ومن دون أن يرى موسى ربَّه ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: 164]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: 143].

وهاتان الصورتان من الوحي هما من دون واسطة بين الله عزّ وجلّ ورسله الكرام عليهم السلام.

3. ــ عن طريق إرسال ملكٍ ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾: ووظيفة هذا الملك أن يبلِّغ للرَّسول ما أمره الله بتبليغه له، ويمكن توضيح هذه الصُّورة من الوحي بما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ

---

1 ـ طنطاوي، التفسير الوسيط، مصدر سابق، ج13، ص50.

رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ» قَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا"(1).

ويُفهم من هذا الحديث أنَّ هناك صورتين يجيء بهما جبريل ﵇ إلى النَّبي ﷺ هما:

أ- أن يأتيه بصفته الملائكية دون أن يراه النَّبي ﷺ ومن معه: وهي أشدُّ صور الوحي على الرَّسول ﷺ، فقد كان يتصبَّبُ عرقًا في اللَّيلة الشَّديدة البرد، وكان يُسمع منه دويٌّ كدويِّ النَّحل، وورد أيضًا أنَّ النَّبي ﷺ كان ذات مرة يترل عليه الوحي وفَخِذُه كانت على فخذ زيد بن ثابت ﵁، فثقلت فخذ النَّبي ﷺ على فخذ زيد حتى كادت ترضَّها (2)...

ب- أن يأتيه جبريل على صفة رجل فيكلِّمه بالوحي فيعِي ما يقوله له، وقد كانت الرُّسل من الملائكة تتمثَّل للأنبياء والصَّالحين كقصَّة ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخل عليه ثلاثة من الملائكة دون معرفته لهم فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود: 70]، وكقصَّة مريم عليها السلام لما جاءها الملك على هيئة رجل ولم تعرفه ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 17 – 189]، أمَّا بالنِّسبة إلى النَّبي ﷺ فقد ثبت في الصِّحاح أنَّ جبريل ﵇ كان يأتي النَّبي ﷺ على صورة بشر (3)، وكان أقرب من صورة الصَّحابي دِحْيَة الكلبي (4).

أمَّا الكيفية التي نزل بها القرآن الكريم على النَّبي محمد ﷺ فقد كان عن طريق جبريل ﵇ بصورته الملائكيَّة قولاً واحدًا، ولم يترل عليه شيء من القرآن بالطُّرق الأخرى، وهذا ما دلَّت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ

1 ـ البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ج1، ص6، رقم الحديث: 2.
2 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب الجهاد والسير، باب: قوله تعالى: لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر...، ج4، ص25، رقم الحديث: 2832.
3 ـ ومثاله حديث جبريل المشهور الذي كان يسأل فيه النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وأشراط الساعة.
4 ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عمر، ج5، ص270، رقم الحديث: 5857.

﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: 192 – 194]، وكقوله أيضًا: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧﴾ [البقرة: 97].

الأدلة على إثبات الوحي:

تتضافر الأدلة على إمكانية وقوع الوحي فمنها:

أوّلا: الأدلَّة النَّقلية: كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110]. وقال أيضا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: 3 – 4]، وقوله ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

ثانيا: الأدلَّة العقلية: إنَّ العالم اليوم يشهد ثورة في مجال الاتِّصالات لم يُعرف لها نظير من قَبْل، فتوصَّل الإنسان أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده من نقلٍ للأصوات والصُّور المباشرة، وتبادلها فيما بين النَّاس حيث يبعدون عن بعضهم البعض آلاف الكيلومترات وذلك في غضون أجزاء من الثانية عبر ما يسمى بالجوال، أو الستالايت، أو السكايب... وعن طريقها أمكن الإنسان أن يخاطب من كان في آفاق بعيدة عنه، وأن يُفهمه ما شاء، ويُرشده إلى ما أراد، فهل يعقل بعد قيام هذه المخترعات المادِّية أن يعجز الإله القادر على أن يوحِيَ إلى بعض عباده ما شاء عن طريق الملَك أو غير الملَك !!!.

الرَّدُّ على من شكك في نسبة هذا الوحي إلى الله ﷻ:

يفتري الجاحدون للوحي منذ القديم وإلى حدِّ السَّاعة أنَّ القرآن الكريم من عند محمد ابتكر معانيه، وصاغ أسلوبه، وقد كان له من حدَّة الذَّكاء، ونفاذ البصيرة، وقوَّة الفِراسة، وشدَّة الفطانة، وصفاء النَّفس، وصدق التَّأمل، ما يجعله يدرك مقاييس الخير والشَّرِّ، والحقِّ والباطل بالإلهام، وأنَّه كان يتلقَّى القرآن على يَدِ مُعلِّم... ويمكن أن نردَّ إجمالا على هذه الشُّبه بما يأتي:

---

1 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كَيْفَ نَزَلَ الوَحْيُ، وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ، ج6، ص182، رقم الحديث: 4981.

أ- على فرض أن القرآن من تقوُّل محمد، فلم لا يستطيع هؤلاء وغيرهم مجتمعين أن يتقوَّلوا ويأتوا من مثل سورة واحدة من القرآن ولو كانت سورة الكوثر!!! ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23]، وقوله أيضا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: 33 – 34].

ب- القرآن الكريم معجزة خالدة بحقٍّ، وهو يضم ألوانًا من الإعجاز، ويستحيل أن يكون من عند محمد لأنَّ هناك حقائق علمية اكتشفت حديثا سواء ما كان منها في علم الأجنة، أو الفضاء، أو البحار... وهي تحتاج إلى آلات ومعدَّات وتِقَنيات متطوِّرة جدًّا، وقد سبق القرآن الكريم وأن أشار إليها منذ أزيد من14 قرنا، وأنّى لمحمد أن يعلمها وهو أمِّي لا يمتلك من وسائل العلوم والتكنولوجيا ذرَّة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53].

ج- هناك أحداث كثيرة ووقائع من حياة النَّبي ﷺ تدلُّ على أنَّ الوحي أبطأ عليه مع أنَّه في أمسِّ الحاجة إليه، كحادثة الإفك التي اتُّهم فيها زوجه عائشة رضي الله عنها، فخاض في عرضها الكثيرين ممَّن كان في المدينة، والوحي منقطع عنه لِأزيد من شهر، فلو كان الوحي من عنده، أو على الأقلِّ يتحكَّم فيه لسارع إلى تبرئة زوجه منذ الوهلة الأولى؛ لكنَّ الوحي من عند الله هو أعلم بما يتزل، ووقت ما يتزِّل.

د- أيُعقل أن يكون القرآن من عند محمَّد ويعاتب فيه نفسه مرارًا!!! خذ على سبيل المثال: قصَّة الأعمى في سورة عبس، وقضية أُسارى بدر المذكورة في أواخر سورة الأنفال، وإذنه للمنافقين بالقعود عن غزوة تبوك، والصَّلاة عليهم والدعاء لهم، وهاتان الأخيرتان مذكورتان في سورة التوبة... فكلُّ هذه القضايا وغيرها عوتب فيها النبي ﷺ عتابًا شديدًا؛ لأنه عليه السلام خالف الأوْلى فيها.

هـ- لو كان القرآن من عند محمد فلِمَ يتصبَّب عرقًا في اللَّيلة الشَّديدة البرد ويرتجف، كما يعجِّل به ويحرِّك به لسانه قبل انقضائه!!! ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: 16 – 19].

و- هل يعقل أن يكون معلِّم محمد أعجمي، بينما القرآن نزل بلسان عربي مُبين أعجز العرب أنفسهم وهم فرسان الفصاحة والبلاغة!!! ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: 103].

المبحث الرابع: نزول القرآن الكريم.

بعد أن بيَّنَّا الوسيلة التي نزل بها القرآن وهي الوحي ننتقل الآن لنبيِّن ما له علاقة بهذا النُّزول من جوانب عديدة.

عدد تنـــزُّلات القرآن:

القرآن الكريم قبل أن يترل أصلاً كان مُثْبَتًا في اللَّوح المحفوظ، وهذا ما أفادته الآيتان الكريمتان ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: 21 – 22]، ولذلك لا تعدُّ مرحلة تثبيت القرآن من عند الله إلى اللَّوح المحفوظ تترلا؛ لأنَّ كلَّ ما أراده الله ﷻ في الأزل أن يقع سجَّله في اللَّوح المحفوظ.

وعليه فإنَّ عدد تترُّلات القرآن الكريم من اللَّوح المحفوظ إلى قلب النَّبي ﷺ مرَّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: من اللَّوح المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا جملة واحدة: وقد جاء الإخبار عن هذه المرحلة في الآيات الآتية: قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 185]. وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 1]. ولا تعارض بين هذه الآيات الثلاث، فالقرآن نزل جملة واحدة في اللَّيلة المباركة وهي ليلة القدر من شهر رمضان.

والحكمة من نزول القرآن جملة واحدة إلى السَّماء الدُّنيا هي: "لتعظيم القرآن وتفخيم أمره بين أهل السموات من الملائكة المكرَّمين، وكذلك لتفخيم أمر من أنزل عليه ﷺ"(1).

المرحلة الثانية: من السَّماء الدُّنيا إلى قلب النَّبي ﷺ منجَّما: فقد ابتدأ نزول القرآن الكريم مفرَّقا على قلب النَّبي ﷺ في ليلة القدر وهي اللَّيلة المباركة من شهر رمضان واستمرَّ نزوله منجَّما على حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته ﷺ إلى قبيل وفاته، حيث أقام في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد أن هاجر إليها عشر سنوات، ودليل نزوله منجَّما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾

---

1 ـ المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص57.

[الفرقان: 33]، وقال أيضا: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: 106].

ومما يؤكِّد نزول القرآن على مرحلتين ما جاء في كثير من الأحاديث الصَّحيحة الواردة في هذا الموضوع، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " نَزَلَ الْقُرْآنُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ فُرِّقَ فِي السِّنِينَ، قَالَ: وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: 75 – 76]" (1)، وعنه أيضًا قَالَ: "أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً..."(2).

حِكَم نزول القرآن مفرَّقًا:

أمَّا عن حِكَم نزول القرآن منجَّما (مفرَّقا) فأهمُّها:

أ- لتيسير حِفْظِه وفَهْمِه: قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106]، فالقرآن الكريم كان يترل مفرَّقا، والرَّسول الكريم ﷺ كان يقرأه على النَّاس على تمهُّل وتريُّث، وكان ذلك أدعى للأمَّة الأمِّية، وأيْسَر لها لِأَن تفهم معانيه، وتتدبَّر آياته، فكان نزوله مفرَّقًا خير عَوْن لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلَّما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصَّحابة ﷺ، وتدبَّروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها.

ب- لتثبيت فؤاد النَّبي ﷺ وأتباعه: لقد انتقد الكفَّار نزول القرآن مفرَّقًا، وقالوا لماذا لم يترل عليه جملةً واحدةً كما هو الحال بالنسبة للكتب السَّماوية الأخرى، فردَّ الله عليهم قائلاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32].

فكان كلَّما اشتدَّ أذى قريش على النَّبي ﷺ وتكذيبهم له، إلاَّ ونزل ما يثبِّت فؤاده من قصص إخوانه الأنبياء عليهم السَّلام والذين تعرَّضوا لمواقف وأحداث مشابهة لما

1 ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب تفسير سورة القدر، ج2، ص578، رقم الحديث: 3959.

2 ـ النسائي، السنن الكبرى، مصدر سابق، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة، ج10، ص205، رقم الحديث: 11308.

يتعرَّض لها النَّبي ﷺ، فكانت هذه القصص تفريجًا لقلبه، وتسلية له، حتَّى لا يأسره الحزن، ولا يتمكَّن منه اليأس ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120].

ج- للتَّحدِّي والإعجاز: لقد كان المشركون يسألون النَّبي ﷺ أسئلة تعجيزية، ويمتحنونه في نبوَّته كسؤالهم عن ذي القرنين، والرُّوح، والسَّاعة... ولكنَّ القرآن كان يترل مفرَّقا مجيبًا عن تساؤلاتهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33]، أي: ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلا أتيناك نحن بالجواب الحقِّ، وبما هو أحسن معنًى من تلك الأسئلة التي هي مَثلٌ في البطلان.

د- مسايرة الحوادث والتَّدرُّج في التَّشريع: القرآن الكريم كان يترَّل وفق الحوادث والوقائع، كما كان يتدرَّج في تربية الأمَّة الإسلامية تدرجًا فطريًّا لإصلاح النَّفس البشرية، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها، وتكامل كَيانها، حتَّى استوت على سوقها، وآتت أكلها الطيِّب بإذن ربها لخير الإنسانية كافَّة.

فالتعاليم التي جاء بها القرآن الكريم كانت بمثابة عملية بنائية حيث كانت ركائز البناء ودعائمه قائمة على أصول الإيمان والأخلاق، ولبناته بمثابة الأحكام التشريعية، فحتى إذا استوى البناء وكَمُل لم يتزعزع بفعل تقلبات الحياة؛ لأنَّه أسِّس على قاعدة صلبة ومتينة... وما أجمل ما روته لنا أمُّنا عائشة رضي الله عنها وهي تَذْكُر لنا الحكمة من نزول القرآن مفرَّقا عندما قالت: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا"[1].

ه- للدَّلالة القاطعة على أنَّ القرآن الكريم تتريل من حكيمٍ حميدٍ: إنَّ هذا القرآن الذي نزل مُنَجَّمًا على رسول الله ﷺ في أكثر من عشرين عامًا تترل الآية أو الآيات على فترات من الزمن يقرؤه الإنسان ويتلو سوره فيجده محكم النَّسج، دقيق السَّبك، مترابط المعاني، رصين الأسلوب، متناسق الآيات والسُّور، كأنَّه عِقْدٌ فريدٌ

---

1 - البخاري صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج6، ص185، رقم الحديث: 4993.

نظمت حبَّاته بما لم يُعهد له مثيل في كلام البشر، أو كأنه بناء محكم التَّرابط تامَّ التَّكوين ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1].

فلو كان هذا القرآن من كلام البَشر قيل في مناسبات متعدِّدة، ووقائع متفرِّقة، وأحداث متنوِّعة، لوقع فيه التَّفكك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التَّوافق والانسجام: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: 82].

أوَّل ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:

اهتمَّ العلماء بهذه المسألة أثناء حديثهم عن نزول القرآن، واختلفت آراؤهم فيها اختلافًا كثيرًا، ومردُّه التَّعارض الظاهري للرِّوايات المتحدِّثة في هذا الموضوع، فقد ورد منها أنَّ أوَّل ما نزل هو مطلع سورة العلق، وقيل سورة صدر سورة المدَّثِّر، وقيل سورة الفاتحة... كما اختلفوا أيضًا في آخر ما نزل من القرآن.

ولحسم القضية فإنَّه يمكننا معالجة هذا الإشكال بعد جمع الرِّوايات المتعلِّقة في الموضوع الواحد، بأن نفرِّق بين أوَّل ما نزل أو آخر ما نزل على الإطلاق، ثم معرفة أوَّل أو آخر ما نزل في موضوع معيَّن، وكذا معرفة أوَّل أو آخر ما نزل سورة كاملة على الإطلاق، وبهذا يزال الإشكال، وبناء على هذا فإنَّ:

ـــ أوَّل ما نزل على الإطلاق هو صدر سورة العلق، كما صرَّح به حديث عائشة رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءً فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ، اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَتُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ المَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: " فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ،

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: 1]، – حَتَّى بَلَغَ – ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: 5]... (1).

ــ أمَّا أوَّل ما نزل في موضوع الدَّعوة فهو ما جاء في صدر سورة المدَّثِّر.

ــ وأوَّل ما نزل في موضوع الجهاد قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: 39].

ــ وأوَّل ما نزل سورة كاملة هي سورة الفاتحة.

ــ وآخر ما نزل على الإطلاق هو قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281]، وقد ورد أنَّه ﷺ مكث بعدها تسع ليال وانتقل إلى الرَّفيق الأعلى.

ــ وآخر سورة نزلت كاملة هي سورة النَّصر.

ــ وأمَّا آخر ما نزل في موضوع معيَّن فيرجع على حسب ذلك الموضوع، فآخر ما نزل في موضوع المواريث آية الكلالة الواقعة في آخر سورة النِّساء، وآخر ما نزل يذكر النِّساء قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ..﴾ [آل عمران: 195].

ولعلَّ الحكمة من معرفة أوَّل أو آخر ما نزل هي معرفة تاريخ التَّشريع الإسلامي وتدرُّجه، والتَّوصُّل إلى حكمة القرآن العظيم في تربية النَّاس وأخذهم بالرِّفق، والتَّحرُّز عن الطَّفرة في تنقِيَتهم، وتخليصهم من أوحال الجاهلية، ونقلهم إلى الفضائل الإسلامية (2).

---

1 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تعبير الرؤيا، بَابُ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، ج، ص29، رقم الحديث: 6982.

2 ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 92 ـ 106، وينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 35 ـ 38.

المبحث الخامس: تأريخ القرآن الكريم

لقد مرَّ المصحف الشَّريف بمراحل تاريخية مهمَّة جدير بطالب العلم أن يقف عندها؛ لأنَّ المصحف المكتوب الذي بأيدينا المفتتح بسورة الفاتحة المختتم بسورة النَّاس، المرتَّبة آياته وسوره، المجمع بين جلدتين، زيادة على ذلك كونه منقَّطًا ومشكَّلا، ويحتوي على رؤوس الآي وعلامات السَّجدات والوقف... هذا وغيره لم يكن أصلاً بهذا الشَّكل زمن النَّبي ﷺ، وإنما مرَّ بمراحل وأطوار حتَّى استقرَّ على ما هو عليه الآن، وهذا ما يعرف بتأريخ القرآن.

ومن جانب آخر فإنَّنا نعتقد جازمين أنَّ القرآن الكريم قد تكفَّل الله بحفظه ورعايته وجاء ما يدلُّ على ذلك بمؤكِّدات كثيرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، وبالمقابل نجد أنَّ الله أوْكَل حفظ الكتب السَّماوية قبل القرآن إلى أهلها، فقد قال تعالى في شأن التَّوراة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: 44].

كما أنَّه لا يوجد كتاب في الوجود لاقى من العناية والرِّعاية البشريَّة ما لَقِيَه القرآن الكريم، فقد تنافس النَّاس في حفظه، وفهمه، وتبليغه، وتفسيره، وطَبْعه، وبذل الأموال الوقفية لخدمته... كلُّ هذا وغيره أسبابٌ هيَّأها الله تعالى لحفظ كتابه على مرِّ العصور، وهي على قسمين: حفظ في الصُّدور، وحفظ في السُّطور.

أولا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في الصُّدور.

منذ الوهلة الأولى التي نزل فيها القرآن الكريم والنَّبي ﷺ كان يحرص على حفظه فكان يعجِّل بالقرآن، ويحرِّك به لسانه والوحي لم ينقطع بعد، فأنزل الله ﷻ عليه قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة: 16 – 19]، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: 114]، فكان ﷺ بعد هذا إذا انصرف عنه الوحي وجد القرآن مجموعًا في صدره كما وعده الله ﷻ.

وقد حفظ الرَّسول ﷺ القرآن كلَّه، وكان يعرضه على جبريل الْتَلْيْكُلاّ في كلِّ عام مرَّة في شهر رمضان، وفي السَّنة التي توفِّي فيها ﷺ عرضه مرَّتين، كما في الحديث: «كَانَ يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ القُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي العَامِ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ»(1)، كما كان ﷺ يقوم بالقرآن ويتلوه آناء الليل وأطراف النَّهار حتى كادت أن تتشقَّق قدماه.

أمَّا من جهة الصَّحابة ﭫ فقد كان النَّبي ﷺ يحفِّظهم القرآن ويحثُّهم عليه، وقد تواترت الأخبار الدَّالة على مدى عناية الصَّحابة ﭫ بحفظ القرآن الكريم، والتَّفنُّن في تلاوته (2)، حتَّى أنَّه قُتل في بئر معونة لوحدها زمن النَّبي ﷺ سبعون من القرَّاء.

أما عن بعض الرِّوايات التي ذكرت أنَّه لم يحفظ القرآن من الصَّحابة إلاَّ العدد القليل كما في حديث أنس بن مالك ﭬ أنَّه قال: "مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعِ القُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ: أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ "(3)، وغيرها من الأحاديث، فيمكن أن يُجاب عنها كالآتي:

ـــ أنَّه لا يراد بهذه الأحاديث الحصر؛ وإنَّما يراد به ضرب المثل ويشهد لهذا أنَّ أنسًا نفسه ذكر في رواية أخرى صحابيًّا آخر ممَّن جمع القرآن وهو "أُبَيُّ بن كعب" فلو كان المراد الحصر لاتَّفقت الأسماء في الحديثين.

ـــ أنَّ المراد بالجمع الكتابة لا الحفظ.

ـــ أنَّ المراد بالجمع حفظه بوجوه القراءات كلِّها.

ـــ أنَّ المراد بالجمع تلقِّيه كلِّه من فم رسول الله ﷺ.

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابُ كَانَ جِبْرِيلُ يَعْرِضُ القُرْآنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ج6، ص186، رقم الحديث: 4998.

[2] ـ مثاله: حديث عبد الله بن مسعود ﭬ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا} [النساء: 41]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ» فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. [البخاري، رقم الحديث: 5050]، وعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري ﭬ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَهُ: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [البخاري، رقم الحديث: 5048].

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القراء، بَابُ القُرَّاءِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، ج6، ص187، رقم الحديث: 5004.

ـــ أنَّ المراد بهؤلاء أنَّهم عَرَضوا قراءهم على النَّبي ﷺ (1).

إذن فنحن على يقين بأنَّ الجمَّ الغفير من الصَّحابة ﷺ يحفظون القرآن الكريم، فلا عجب من ذلك لتوفُّر الدَّواعي الكثيرة منها:

أ- أنَّ القرآن الكريم نزل بلسانهم وهم أهل فصاحة وبيان والقرآن كذلك.

ب- أنَّهم عايشوا الأحداث والوقائع التي كان يعقِّب عليها القرآن، فكان ذلك أدعى للحفظ وأرْسَخ.

ج- أنَّهم كانوا يُعوِّلون على قوَّة حافظتهم لندرة وسائل الكتابة لديهم.

د- امتثالهم للنُّصوص الكثيرة الواردة في الحثِّ على حفظ القرآن، والتَّرهيب من نسيانه وهَجْره.

وانتشر الصَّحابة في الأمصار يعلِّمون أتباعهم القرآن الكريم ويحفِّظونهم، ويفسِّرون لهم معانيه، ويبيِّنون لهم أحكامه، وقد أقبل التَّابعون على هذه المدارس فكثر حفَّاظ القرآن الكريم، ولم يقتصروا على تلاوته؛ بل حفظوا أوجُه قراءته واشتهر عدد كبير من الحفَّاظ بالقراءة والرواية والتَّصدِّي لها حتى انتهت إليهم رئاسة الإقراء.

وتجرَّد بعض التَّابعين للعناية بضبط القراءات وإتقانها، ووضع القواعد لها والأصول حتى صاروا أئمة يُقتدى بهم...واستمرَّ الأمر هكذا والمسلمون يُقبلون على حفظ القرآن في صدورهم إقبالا لا يخطر ببالٍ، ولا يحلُم به كتاب على وجه الأرض، فانتشرت مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وأنشئت معاهد للقراءات وكلِّيات القرآن في العديد من الدُّول الإسلامية ولله الحمد ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: 49].

ثانيا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في السُّطور.

كتابة القرآن الكريم على المصاحف وجمعه مرَّ بأربعة مراحل رئيسة هي:

[1] ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1 ص242، وينظر: الرومي فهد، دراسات في علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص71.

1) مرحلة الكتابة زمن النَّبي ﷺ:

اتَّخذ الرَّسول ﷺ عددًا من الصَّحابة مهمَّتهم كتابة ما كان ينزل عليه ﷺ من وحي واشتهروا بـــ" "كتّاب الوحي"، وكان من بين هؤلاء الخلفاء الرَّاشدون، وزيد بن ثابت، وأبيُّ بن كعب...

أمَّا عن كيفية كتابته فعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، قَالَ: "كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ" [1]، وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال: إذا أنزل شيء على رسول الله ﷺ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ يَقُولُ: " ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا "[2]، وقد أذن النَّبي ﷺ لمطلق الصَّحابة بكتابة القرآن وتشجيعهم على ذلك في أكثر من مناسبة من ذلك قوله ﷺ: "لَا تَكْتُبُوا عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ مَنْ كَتَبَ عَنِّي شَيْئًا سِوَى الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ»[3].

أمَّا عن أدوات الكتابة فقد كان الصَّحابة يكتبون على كلِّ ما تناله أيديهم من وسائل الكتابة المُتاحة في ذلك الوقت كالعُسُب "وهي جريد النَّخل"، واللِّخَاف: "وهي الحجارة الرَّقيقة"، والرِّقاع: "وهي القطعة من الجلد أو الورق"، والأقتاب: "جمع قتَب وهي الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه"، والأكتاف: "جمع كتف وهي عَظْم عريض للإبل والغنم"...

مميزات جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ:

تميَّزت مرحلة الجمع زمن النَّبي ﷺ بما يأتي:

أ- لم يكن القرآن الكريم في عهد الرَّسول الله ﷺ مجموعًا في مصحف واحد؛ بل كان مفرَّقًا في الرِّقاع والأكتاف واللِّخاف وغيرها، والسَّبب في عدم جمعه لأنَّ القرآن

---

1 ـ الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، أبواب المناقب، باب فضل الشام واليمن، ج6، ص228، رقم الحديث: 3954.

2 ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، مصدر سابق، مسند عثمان بن عفان ﷺ، ج1، ص460، رقم الحديث: 399.

3 ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب العلم، فصل في توقير العالم، ج1، ص216، رقم الحديث: 437.

إلى أواخر حياته ﷺ لا زال يتنزّل، كما لم تكن آيات القرآن وسُوره مرتَّبة على حسب نزوله، ثمَّ إنَّ النَّبي ﷺ لم يعلم بأجل موته..

ب- توفِّي النَّبي ﷺ وقد كُتب القرآن الكريم كلُّه، وكان مرتَّب الآيات داخل السُّور على النَّحو الذي عليه الآن..

2) مرحلة الجمع زمن أبي بكر رضي الله عنه:

بعد وفاة النَّبي ﷺ ارتدَّت كثيرٌ من القبائل، فحاربهم أبو بكر رضي الله عنه بجيوشه من الصَّحابة وفيهم الحفَّاظ والقرَّاء، فاستُشهد منهم الكثير، فأشار عمر رضي الله عنه على أبي بكر بفكرة جمع القرآن في مصحف واحد، وقد نقل لنا الإمام البخاري القصَّة الكاملة لمرحلة الجمع حيث روى أنَّ زيد بن ثابت الأنصاري قال: "أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ "، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: «كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟» فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الَّذِي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لاَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ، وَلاَ نَتَّهِمُكَ، «كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: «كَيْفَ تَفْعَلاَنِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النَّبِيُّ ﷺ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ، وَالعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ.."[1].

ويَرجع سبب تكليف أبي بكر زيدَ بن ثابت مهمَّة الجمع إلى:

1) ـــ أنَّه كان من حفَّاظ القرآن الكريم.

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث 4986.

2) ـــ أنَّه شهد العرضة الأخيرة التي عرض فيها النَّبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام.
3) ـــ أنَّه من كتَّاب الوحي للرَّسول ﷺ.
4) ـــ مكان يتمتَّع به رضي الله عنه من رجاحة عقله، وشدَّة ورعه، وكمال خُلُقه، واستقامة دينه، ويشهد لذلك مقولة أبي بكر رضي الله عنه فيه.

وقد تلخَّص منهج زيد في جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أن لا يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان على أنَّه كتب بين يدي الرَّسول ﷺ، وأن لا يقبل من صدور الرِّجال إلا ما تلقَّوْه من فم الرَّسول ﷺ فإنَّ عمر رضي الله عنه كان ينادي: "من كان تلقَّى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأتنا به" ولم يقل من حفظ شيئًا من القرآن فليأتنا به.

وظَفَر هذا الجمع باتِّفاق الصَّحابة رضي الله عنهم على صحَّته ودقَّته وأجمعوا على سلامته من الزِّيادة أو النُّقصان، وتلقَّوه بالقَبول والعناية التي يستحقُّها، ولم يكن "المصحف" يطلق على القرآن قبل جمع أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه وإنَّما عُرِف هذا الاسم بعد أن أتمَّ زيد جمع القرآن، وكان أبو بكر أوَّل من جمع كتاب الله وسمَّاه المصحف [1].

وبقيت الصُّحف عند أبي بكر، ثمَّ انتقلت إلى عمر، ثمَّ إلى حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

3) ـــ مرحلة النَّسخ زمن عثمان رضي الله عنه:

اتَّسعت الدَّولة الإسلامية في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فكثر الدَّاخلون من العجم في الإسلام، ومع انتشار الصَّحابة في الأمصار، أخذ أهل كلِّ مِصْرٍ قراءة من وفد إليهم من قرَّاء الصَّحابة، وتمسَّكوا بها، وخطَّأوا ما سواها من القراءات المتواترة، واختلفوا في ذلك أيَّما اختلاف.

فلما كانت فتوحات "أرمينية" و"أذربيجان" من أهل العراق، كان فيمن حضرها "حذيفة بن اليمان" فرأى اختلافًا كثيرًا في وجوه القراءة، فأفزعه ذلك، فنقل الخبر إلى الخليفة عثمان، فقال حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ: «أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا

---

[1] - ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، مصدر سابق، ص ص:78 - 83.

بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ»، فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ "، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ» فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَى حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ" (1).

واختار عثمان أربعة من الصَّحابة لنسخ المصاحف وهم: عبد الله بن الزُّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وهؤلاء الثَّلاثة من قريش، ومعهم زيد بن ثابت.

وقد سأل عثمان ﷺ الصَّحابة: "مَنْ أَكْتَبُ النَّاسِ قَالُوا كَاتِبُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْرَبُ؟ وَفِي رِوَايَةٍ أَفْصَحُ، قَالُوا: سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ قَالَ عُثْمَانُ فَلْيُمْلِ سَعِيدٌ وَلْيَكْتُبْ زَيْدٌ"(2).

خطوات نسخ المصحف زمن عثمان ﷺ:

اتَّفق عثمان مع الصَّحابة ﷺ أجمعين على خطوات النَّسخ فكانت كالآتي:

أ- إقناع الخليفة النَّاس بعمليَّة النَّسخ فقام فيهم خطيبًا قائلاً: "أَيُّهَا النَّاسُ عَهْدُكُمْ بِنَبِيِّكُمْ مُنْذُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَنْتُمْ تَمْتَرُونَ فِي الْقُرْآنِ، وَتَقُولُونَ قِرَاءَةُ أُبَيٍّ وَقِرَاءَةُ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ الرَّجُلُ: وَاللَّهِ مَا تُقِيمُ قِرَاءَتُكَ فَأَعْزِمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ شَيْءٌ لَمَّا جَاءَ بِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْوَرَقَةِ وَالْأَدِيمِ فِيهِ الْقُرْآنُ،

[1] - البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث: 4987.

[2] - ابن حجر، فتح الباري، مصدر سابق، ج9، ص19.

حَتَّى جَمَعَ مِنْ ذَلِكَ كَثْرَةً، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَدَعَاهُمْ رَجُلًا رَجُلًا فَنَاشَدَهُمْ لَسَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ أَمْلَاهُ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ" [1].

ب- أرسل عثمان إلى أمِّ المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها أَنْ أَرْسِلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثمَّ نعيدها إليك، فأرسلت بها إليه، ومن المعلوم أنَّ هذه الصُّحف هي التي جُمِعت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه على أدقِّ وجوه البحث والتَّحرِّي.

ج- دفع عثمان ذلك إلى زيد بن ثابت والقرشيِّين الثَّلاثة وأمرهم بنسخ مصاحف منها وقال عثمان للقرشيِّين: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ»[2].

د- رسمت (كتبت) النُّسخ بطريقة تقبل كلَّ وجوه القراءة التي قرأها النَّبي ﷺ وطريقة كتابتها هي أنَّه إذا تواتر في آية أكثر من قراءة تكتب الآية خالية من أيَّة علامة لتحتمل قراءتين أو أكثر مثل: "ملك يوم الدِّين" تحتمل مالك يوم الدين، كذلك: "فتبينوا" تحتمل فتثبتوا، وأيضًا: "ننشرها" تحتمل ننشزها.

أمَّا إذا لم يكن رسمها يحتمل القراءات فتكتب في بعض المصاحف برسم يدلُّ على قراءة، وفي مصاحف أخرى برسم يدلُّ على القراءة الأخرى مثل:

ـــ {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ} هكذا تكتب في بعض المصاحف، وفي بعضها {وَأَوْصى}.

ـــ {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ} بواو في بعض المصاحف، وفي بعضها بحذف الواو {سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}.

ه- نسخت مجموعة من المصاحف اختُلِف في عددها ولكنَّها على الأقلِّ ستَّة، أُرسلت إلى الأمصار الرَّئيسة وهي: مكَّة، الشَّام، الكوفة، البصرة، المدينة، وبقي عند الخليفة مصحف، وردَّ المصحف الأصلي إلى حفصة.

---

[1] ـ ابن أبي داود عبد بن سليمان، المصاحف، حققه: محمد بن عبده، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، 2002م، ص100.

[2] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج6، ص183، رقم الحديث: 4987.

و- أرسل الخليفة مع كلِّ مصحف قارئًا أو أكثر من الصَّحابة أو من كبار التَّابعين ليكون المرجع في ضبط النَّص المكتوب؛ لأنَّ المصاحف لم تكن منقَّطة ولا مشكَّلة، فتلقَّى كلُّ مصر القراءة والضَّبط من هؤلاء المقرئين، وتخرَّج من أيديهم قرَّاء يضبطون قراءة أهل ذلك المِصر، وانتهى الخلاف بينهم في الرَّسم والضَّبط بوجود المرجعية في القراءة.

ز- أمر الخليفة بما سوى هذه المصاحف أن تحرق، كي لا يعود أحدٌ إلى الخلاف الماضي، وانقاد النَّاس لأمره.

ح- هذه المصاحف كانت مرتَّب الآيات والسُّور على الوجه المعروف الآن، وسمِّيت من حينها بالمصاحف العثمانية (1).

الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان:

يتبيَّن لنا ممَّا سبق ذكره أنَّ جمع أبي بكر يختلف عن جمع عثمان في الباعث والكيفيَّة.

فالباعث لدى أبي بكر ﷺ لجمع القرآن خشية ذهابه بذهاب حملته، حين استحرَّ القتل بالقرَّاء، أمَّا الباعث لدى عثمان ﷺ كثرة الاختلاف في وجوه القراءة، حين شاهد هذا الاختلاف في الأمصار وخطَّأ بعضهم بعضًا.

وجَمْع أبي بكر للقرآن كان نقلًا لما كان مفرَّقًا في الرِّقاع والأكتاف والعسب، وجمعًا له في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، أمَّا جُهد عثمان ﷺ للقرآن فقد كان نسخًا لمصحف أبي بكر، حتَّى يجمع المسلمين على مصحف واحد (2).

4) ـــ مرحلة التَّحسين والتَّزيين بعد زمن عثمان:

بعد زمن عثمان بن عفان ﷺ استمرَّت الأمَّة الإسلامية في عنايتها بالقرآن؛ وخاصَّة من جانب ضبط النَّصِّ، فقد نُقِّط المصحف، ثمَّ شكِّل، ثمَّ وُضعت فيه رؤوس الآيات، وبعدها علامات السَّجدات والوقف، ثمَّ حزِّب القرآن وقسِّم الحزب إلى أنصاف

[1] ـ ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ص ص" 130 ـ 131. وينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، ص ص: 87 ـ 89.

[2] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص133.

ثمَّ أرباع ثمَّ أثمان، وبعد ذلك طُبع المصحف بطباعة حجرية كمطبعة القاهرة سنة 1923م والتي طبعت ملايين النُّسخ، ثمَّ نسخ المصحف حاليا على أجهزة إلكترونية وأقراص مدمجة، وآخرها ظهورا هو مصحف إلكتروني مزود بقلم يقرأ القرآن وفق القراءات العشر، ويفسِّر القرآن... وهذا التَّحسين كلُّه موافق للرَّسم العثماني الذي لا يجوز العدول عنه.

المبحث السادس: المكِّي والمدني.

اعتنى العلماء عناية فائقة في معرفة مكان نزول الآيات والسُّور، وزمن نزولها لما في معرفة ذلك من فوائدٍ عديدةٍ لفهم النُّصوص القرآنية، واستيفاء معانيها، واستقصاء مدلولاتها حتى كان يقول عبد الله بن مسعود: «وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(1).

1) ــ تعريف المكي والمدني:

تعددت تعاريف علماء هذا الفنِّ في كيفية التَّمييز بين القرآن المكِّي والقرآن المدني، على ثلاثة آراءٍ نوضِّحها فيما يأتي:

الرأي الأوَّل: أنَّ المكِّي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة، وإن كان نزوله بغير مكَّة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله خارج المدينة.

هذا التَّعريف رُوعي فيه زمان النُّزول، وهو أشهر الاصطلاحات في تعريف المكِّي والمدني؛ لأنَّه يمتاز بشموليته فهو جامع لسُوَر القرآن لا يندُّ عنها شيء، كما أنَّ الضَّابط فيه هو الهجرة، فما كان قبل الهجرة وبالتَّحديد قبل وصول النَّبي ﷺ إلى المدينة فهو مكِّي، وما كان بعد وصوله المدينة إلى مماته ﷺ فهو مدني (2).

وبناء على هذا التَّعريف المختار فإنَّ:

ــ قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]، نزلت بعد الهجرة في يوم الجمعة بعرفة في حجة الوداع فهي: مدنية.

ــ سورة النصر: نزلت بمكة بعد الهجرة فهي مدنية.

ــ ما نزل خارج المدينة بعد الهجرة: كصدر سورة الأنفال التي نزلت ببدر، وبعضًا من سورة التوبة التي نزلت بتبوك، فهما مدنيَّتان.

---

1 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ج6، ص187، رقم الحديث: 5002.

2 ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص188.

الرَّأي الثَّاني: أنَّ المكِّي ما نزل بمكَّة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة.

هذا التَّعريف تقيَّد بالتَّسمية المكانية، والتزم بِظاهِرها، وإن كان شرّاحه أدخلوا في مكَّة ضواحيها، فاعتبروا من القرآن المكي ما نزل بمنى وعرفات والحديبية، ومن القرآن المدني ما نزل بأحد وسلع [1].

لكن هذا الضَّابط ليس دقيقًا؛ لأنَّ بعض القرآن لم يترل لا بمكة ولا بالمدينة.

الرَّأي الثالث: نظروا فيه إلى الخطاب، فما كان الخطاب فيه بـــ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو مكِّي؛ لأنَّ الكفر كان غالبًا على أهل مكَّة فخوطبوا بيا أيُّها النَّاس، وما كان الخطاب فيه بـــ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو مدنيٌّ؛ لأنَّ الإيمان كان غالبًا على أهل المدينة [2].

ونردُّ أيضًا بأنَّ هذا الضَّابط ليس دقيقًا؛ لأنَّ بعض السُّور ليس فيها أيٌّ من الخطابين كالسُّور القصار، ومنها ما فيه الخطابين معا كسورتي البقرة والحجِّ.

أهمِّية معرفة المكي والمدني:

تكمن أهمِّيته فيما يأتي:

1. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإنَّ معرفة مكان النُّزول يعين على فهم المراد من الآية، ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانًا.
2. معرفة تاريخ التَّشريع وتدرُّجه في التَّكليف، ويترتَّب على هذا الإيمان بأنَّ هذا التَّدرج لا يكون إلَّا من عليم خبير.
3. الاستفادة من أسلوب القرآن في الدَّعوة إلى الله تعالى فهو أسلوب يشتدُّ ويلين، ويفصِّل ويجمل، ويَعِد ويتوعَّد، ويُرغِّب ويُرهِّب، ويوجِز ويُطنب حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.
4. الاستفادة منه في معرفة سيرة الرَّسول ﷺ وذلك بمتابعة أحواله في مكَّة ومواقفه في الدَّعوة، ثم أحواله في المدينة، وذلك بغية الاقتداء بهذا المنهج النَّبوي الحكيم في الدَّعوة.

[1] ـ ينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص56.

[2] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج1، ص193.

5. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم واهتمامهم به حتَّى إنَّهم لم يكتفوا بحفظ النَّصِّ القرآني؛ بل تتبعوا مكان نزوله، ومعرفة ما نزل قبل الهجرة، وما نزل بعدها، وما نزل باللَّيل وما نزل بالنَّهار، وما نزل في الصَّيف وما نزل في الشِّتاء، وما نزل في الحضر وما نزل في السَّفر ...[1].

ضوابط معرفة المكِّي والمدني:

ذكروا لمعرفة المكِّي والمدني طريقتين لا ثالث لهما، وهما: السَّماع والقياس.

أمَّا السَّماع: فالمراد به ما نقل عن الصَّحابة الذين عاشوا فترة الوحي وشاهدوا التنزيل، أو عن أحد التَّابعين الذين سمعوا ذلك من الصَّحابة، يقول الباقلاني في الإنتصار: إِنَّمَا يَرْجِعُ فِي مَعْرِفَةِ الْمَكِّيِّ وَالْمَدَنِيِّ إِلَى حِفْظِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَمْ يَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ قَوْلٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ فَرَائِضِ الْأُمَّةِ[2].

وأمَّا القياس: فهي ضوابط عرفت بالاستقراء، واستدلَّ بها العلماء على المكِّي والمدني، وكان ذلك موضع عناية المتقدِّمين، ومن جملة الضَّوابط ما يأتي:

أ- كلُّ سورة مبدوءة بقَسَم فهي مكية.

ب- كلُّ سورة فيها كلَّا فهي مكية.

ج- كلُّ سورة مفتتحة بالأحرف المقطَّعة فهي مكِّية باستثناء البقرة وآل عمران.

د- كلُّ سورة فيها نداء بـــ "يا أيُّها النَّبي" أو " يا أيُّها الرَّسول" فهي مدنية.

ه- كلُّ سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكِّية.

و- كلُّ سورة فيها ذكر للجهاد والمنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت.

ز- كلُّ سورة فيها "يأيُّها النَّاس" وليس فيها "يأيها الذين آمنوا" فهي مكِّية إلاَّ سورة الحجِّ فإنَّها مكِّية مع أنَّ في آخرها "يأيها الذين آمنوا".

ح- كلُّ سورة مفتتحة بـــ "الحمد" فهي مكِّية وهنَّ خمس سور.

ط- كلُّ سورة فيها قصَّة آدم ما عدا البقرة فهي مكِّية.

---

[1] ـ ينظر: الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص:133 ـ 134.

[2] ـ ينظر: الباقلاني أبو بكر، الإنتصار للقرآن، حققه: محمد عصام القضاة، ط1، دار الفتح، عمّان، 2001م، ج1، ص247.

ومن مميِّزات السُّور المكِّية قصرها، وقصر آياتها في الغالب مع قوَّة جَرْس الألفاظ ووقعها، وإيجاز العبارة مع الوفاء بالمعنى وبلاغته، وتركيزها على قضايا الإيمان والأخلاق، والحديث عن الأمم الماضية، بخلاف السُّور المدنية فإنَّ أغلبها طويلة وكذا آياتها، كما تتناول المواضيع التَّشريعية كتشريع المعاملات والعبادات والعقوبات والجهاد... [1].

تحديد السُّور المكِّية والمدنية:

السُّور المدنية: اختلف العلماء في عددها، وقد نقل السيوطي عن ابن الحصار أنَّ المدني عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عَشْرة سورة وما عدا ذلك فهو مكِّي [2].

والسُّور المدنية هنَّ: البقرة، آل عمران، النِّساء، المائدة، الأنفال، التَّوبة، النُّور، الأحزاب، محمَّد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التَّحريم، النصر.

أمَّا المختلف فيها اثنا عشر سورة هي: الفاتحة، الرَّعد، الرَّحمن، الصَّفُّ، التَّغابن، المطفِّفين، القدر، البيِّنة، الزَّلزلة، الإخلاص، الفلق، النَّاس، والأرجح في هذه السُّور أنَّها مكِّية باستثناء الصَّفِّ فالأرجح أنَّها مدنيَّة.

أما السور المكية فهنَّ ما عدا السُّور المذكورة وعددهنَّ اثنتان وثمانون سورة.

أقسام القرآن الموضوعية، وعلاقة كلِّ قسم بزمن النُّزول:

يُقسَّم القرآن من حيث موضوعاته إلى ثلاثة أقسام رئيسة كما هي مبيَّنة في الرَّسم الآتي:

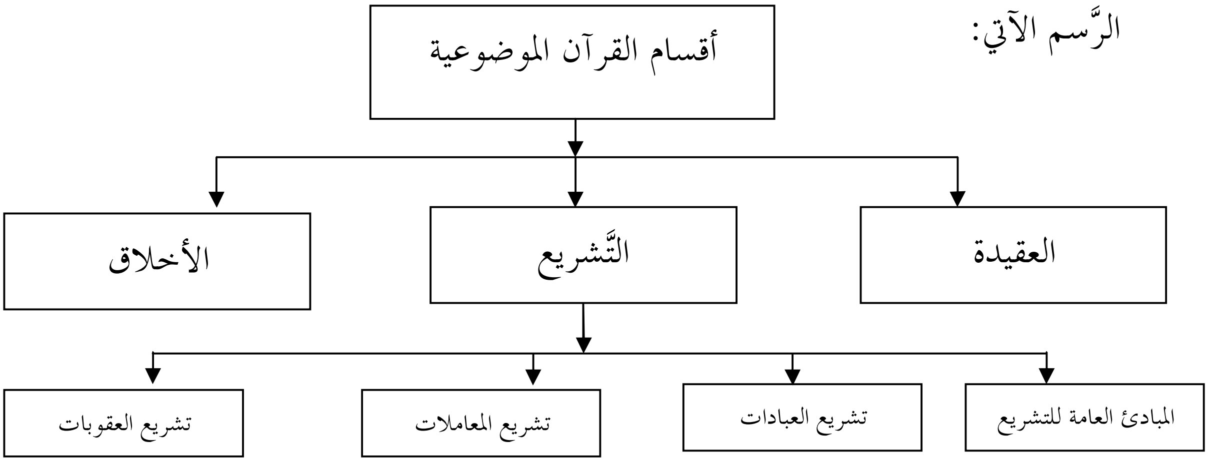

---

[1] ـ الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 131 ـ 132، وينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 62 ـ 64.

[2] ـ ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص44.

1. **آيات العقيدة**: يغلب على القسم المكِّي من القرآن الحديث عن الإيمان بشكل تفصيلي، كالإيمان بالله، وباليوم الآخر، وبالبعث، والحساب، والجنَّة والنَّار، والملائكة والجنِّ، والكتب السَّماوية، والرُّسل... كما يهدف هذا القسم إلى تصحيح تصوُّرات الإنسان تجاه خالقه ببيان أحقِّيته وحده في العبادة ونبذ عبادة ما سواه، وتصحيح نظرة الإنسان إلى الكون، والحياة، ومعرفة مصدر الإنسان ودوره في الحياة، وما سيؤول إليه بعد مماته.

وكلُّ هذا وغيره مذكور في القرآن بأساليب متنوِّعة، فهناك الحديث المباشر عنها، وهناك أسلوب القصص، وهناك ضرب الأمثال للفت الأنظار، وهناك أسلوب القَسَم...

ولا عجب أن تكون الفترة المكِّية مرتكزة أساسًا على ترسيخ الإيمان، وتصحيح المفاهيم؛ لأنَّها بمثابة أساسٍ للبناء، وقاعدة للارتقاء، فمتى صَلُح الاعتقاد صلح العمل.

2. **آيات التَّشريع**: إنَّ السِّمة الغالبة في القسم المدني هو الحديث عن التَّشريع وينقسم إلى أربعة أقسام:

أ- الآيات المتحدِّثة عن المبادئ العامَّة للتَّشريع: وضع القرآن الكريم القواعد العامَّة للتَّشريع، وذكرها في قسمه المكِّي والمدني على السَّواء، فمنها إقامة مبدإ العدل والإحسان، ومبدإ رفع الحرج في الدِّين، وأن لا إكراه في الدِّين، والمشقة تجلب التَّيسير، وأنَّ الإنسان هو المسؤول عن تصرُّفاته وحده...

ب- الآيات المتحدِّثة عن تشريع العبادات: وهي التي تربط العلاقة بين العبد وربِّه، كتشريع الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، والحجِّ، والأيمان والنُّذور...، ويغلب على هذا القسم نزوله بالمدينة، كما أنَّ غالبيَّته نزل مُجملا وتُرك تفصيله وتبيانه للنَّبي ﷺ، فالصلاة والحج أُجملا ذكرهما في القرآن؛ والنَّبي ﷺ بيَّنهما عن طريق أفعاله وأقواله،

فقال في شأن الصَّلاة: "صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي"(1)، وعن شأن مناسك الحجِّ قال: "خذوا عنِّي مناسككم" (2).

ج- الآيات المتحدثة عن تشريع المعاملات: وقد جاءت هذه الآيات لتنظِّم شؤون المسلمين فيما بينهم كالمعاملات المالية من بيع ودين وميراث، والمعاملات الزَّوجية كالخطبة والمهر والزَّواج والطَّلاق والنَّفقة والعدَّة والرَّضاع، وأحكام الأسرة من آداب الاستئذان وغضِّ البصر، وذكر المحرَّمات من النِّساء، وأحكام الجهاد من صلح ودماء وأسارى وغنائم وفيء، ونظام الحكم من الشُّورى والعدل وأداء الأمانة، وأحكام المسلمين مع غيرهم سواء في السِّلم أو الحرب كالمنافقين وأهل الكتاب من يهود نصارى... وقد جاء هذا في القسم المدني مفصَّلا وموسَّعا لأنَّه عماد الأمن والاستقرار.

د- الآيات المتحدِّثة عن تشريع العقوبات: وهي القوانين التي شُرعت من أجل حفظ أمن الأفراد والمجتمعات وجميعها نزل في القسم المدني كتشريع القصاص في القتل، وإقامة الحدود في حكم السَّرقة، والحرابة، وشرب الخمر، والزِّنا، والقذف، وتفويض الحاكم في عقوبة التعزير كإتيان الذُّكران والسِّحاق.

3. **آيات الأخلاق**: القرآن الكريم في شقَّيه المكِّي والمدني كان يحثُّ على التَّحلِّي بأخلاق حميدة كالصِّدق، والعفَّة، والحياء، والأمانة، والصَّبر، والعفو، وكظم الغيظ وغير ذلك، وفي المقابل نجده يحثنا أن تخلَّى عن الأخلاق الذَّميمة كالكذب، والغشِّ، والبهتان، وتطفيف الكيل والميزان، والغيبة، والنميمة، واليمين الفاجرة...

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري،مصدر سابق، كتاب الآذان، باب الآذان للمسافر، ج1، ص128، رقم الحديث: 631.

[2] ـ البيهقي، السنن الكبرى، مصدر سابق، جماع أبواب دخول مكة، بَابُ الْإِيضَاعِ فِي وَادِي مُحَسِّرٍ، ج5، ص204، رقم الحديث: 9524.

المبحث السابع: أسباب النُّـــزول.

يعدُّ سبب النُّزول أحد أهمِّ علوم القرآن الكريم، وما ذلك إلاَّ لعلاقته المباشرة بتفسير الآية، كما يُعتمد عليه في ترجيح معنى الآية إذا اختُلف في معناها، وبيان سبب النزول طريق قويٌّ في فهم معاني القرآن، يقول ابن تيمية: " مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ"[1].

أنماط التَّأليف في علم أسباب النُّـــزول:

ولأهمِّية هذا العلم فقد تنوَّعت تآليف العلماء فيه على ثلاثة أنواع:

النَّوع الأوَّل: أنْ تُفرد كتب مستقلَّة في أسباب النُّزول: كأسباب النُّزول لعليٍّ بن المديني، والواحدي، وأسباب نزول القرآن لابن الجوزي، ولباب النُّقول في أسباب النزول للسُّيوطي وغيرهم.

النَّوع الثَّاني: أن نجد أبوابا لأسباب النُّزول ضمن كتب السُّنَّة: فمثلا في صحيح البخاري ألَّف كتابا في التفسير وكان أغلبه روايات في أسباب النُّزول، ونفس الشيء عند الإمام مسلم.

النَّوع الثَّالث: أن نجدها مدوَّنة في كتب التَّفسير وخاصَّة المأثور منها: فهذا النَّوع من التَّفسير يهتمُّ كثيرًا ببيان سبب نزول الآية إذا ورد فيها سبب.

إذن فهذه ثلاثة مصادر لكيفية التَّوصُّل إلى معرفة سبب النُّزول.

والجدير بالذكر أنَّ آيات القرآن الكريم من حيث سبب النزول وعدمه تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوَّل: قسم نزل من الله ابتداء من دون أن يرتبط بسبب من الأسباب الخاصَّة؛ وإنَّما هو مرتبط بالسَّبب العام وهو هداية النَّاس، وهذا القسم هو أكثر آيات القرآن الكريم.

[1] ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص108.

القسم الثَّاني: قسم نزل مرتبطًا بسبب من الأسباب الخاصَّة يسمِّيه العلماء "سبب نزول الآية" وآيات هذا القسم هي الأقلُّ، ولأهمِّيتها أفردها العلماء بالدِّراسة والبيان [1].

تعريف سبب النزول:

سبب النُّزول هو الأمر أو الحادثة التي شاء الله أن تقع ليتزل بعدها آية أو آيات تُعقِّب على تلك الحادثة لأجل أخذ الدُّروس والعبر منها.

إذن فسبب النُّزول هو "ما نزل قرآنٌ بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال" [2].

شرح قيود التَّعريف:

ــ ما نزل قرآن بشأنه: يعني أن تنزل آية واحد، أو أكثر، وربَّما سورة كاملة كسورة المسد لتُعلِّق على الحدث، أو تجيب على سؤال طرح على النَّبي ﷺ.

ــ وقت وقوعه: لا بدَّ أن يكون نزول الآيات وقْتَ وقوع الحادثة، أو توجيه السُّؤال فإنْ كانت الحادثة قبل نزول الآيات بزمن طويل خرج ذلك عن هذا الباب، وصار من باب الإخبار عن الوقائع الماضية والأمم السَّابقة.

ــ حادثة: وقد تكون حادثة فردية مثل: قصَّة المجادلة وهي خولة بنت ثعلبة التي جادلت النَّبي ﷺ في أمر زوجها أوس بن الصامت فأنزل الله بعدها مباشرة آيات من صدر سورة المجادلة، وكقصَّة الأعمى عبد الله بن أم مكتوم حيث عبس النَّبي ﷺ في وجهه رغم أنَّه ضرير، فأنزل بشأنه مطلع سورة عبس...، وقد تكون حادثة جماعية مثل: حادثة الإفك التي هزَّت المدينة لأزيد من شهر واتُّهم فيها زوج النَّبي ﷺ عائشة رضي الله عنها في عرضها الشَّريف، فأنزل الله بعدها آيات من سورة النور تبرِّئها، كما وتعتبر الغزوات المذكورة في القرآن بمثابة حوادث جماعية كغزوة بدر التي عقَّب الله عليها في سورة الأنفال وشيئًا من سورة آل عمران، وأحد في سورة آل عمران، وتبوك ونزول آيات فيها في سورة التوبة...

ــ سؤال: فهو ما يطرح كأسئلة مباشرة موجَّهة إلى النَّبي ﷺ على سبيل الاستفسار أو التَّعجيز، فتَرِد بعبارة "يسألونك" أو "يسألك" ويَتزل القرآن بعد ذلك ليجيب عن السُّؤال

---

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص:135.

[2] ـ عماد علي عبد السميع، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان، الإسكندرية، 2006م، ص92.

المطروح بقوله: "قل"، ومثاله: قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: 189]، وقوله أيضًا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]، وهكذا في التِّسع المواضع المتبقِّية.

طريق معرفة سبب الترول:

يعتبر سبب النُّزول حادثة من أحداث التَّاريخ الواقعة في عهد الرَّسول ﷺ ولهذا فلا سبيل لمعرفته إلا عن طريق الرِّواية الصَّحيحة، كما لا يمكن الاجتهاد في معرفتها بحال من الأحوال؛ يقول الواحدي: "ولا يحلُّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاَّ بالرِّواية والسَّماع ممن شاهدوا التَّريل ووقفوا على الأسباب"(1).

صيغة سبب النُّــزول:

لأسباب النُّزول صيغتين يعتمد عليهما في بيان إن كانت الرِّواية سببا للترول أم لا، وهما:

ـــ النَّص الصَّريح: تُعتمد الرِّواية الصَّحيحة وتكون سببًا لترول الآية أو أكثر إذا كان نصُّها صريحًا بأن يقول الرَّاوي: "سبب نزول هذه الآية كذا"، أو إذا أتى بفاء تعقيبية بعد ذكره حادثة أو سؤال، كما إذا قال: "حدث كذا" أو "سُئِلَ رسول الله ﷺ عن كذا" فترلت الآية، فهاتان صيغتان صريحتان في السَّببية، ومثاله: ما رواه الإمام البخاري بسنده عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ، قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ، عَنِ الصَّفَا، وَالمَرْوَةِ فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ [البقرة: 158]"(2).

ـــ النَّص المحتمل: تكون الصِّيغة محتملة للسَّببية إذا قال الرَّاوي: "نزلت هذه الآية في كذا" فذلك يراد به تارة سبب النُّزول، ويراد به تارة أنَّه داخل في معنى الآية، وكذلك إذا قال: "أحسب هذه الآية نزلت في كذا" أو "ما أحسب هذه الآية نزلت إلاَّ في كذا" فإنَّ الرَّاوي

1 ـ الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1388هـ، ص: 5.

2 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله...، ج6، ص23، رقم الحديث: 4496.

بهذه الصِّيغة لا يقطع بالسَّبب – فهاتان صيغتان تحتملان السَّببية وغيرها كذلك [1]، وفي هذا الشَّأن يقول الزركشي: " قَدْ عُرِفَ مِنْ عَادَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا قَالَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي كَذَا فَإِنَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ هَذَا الْحُكْمَ لَا أَنَّ هَذَا كان السَّبب في نزولها" [2]، ومثاله: ما رواه الإمام البخاري بسنده عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: خَاصَمَ الزُّبَيْرُ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»، وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ، كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65][3].

فوائد معرفة سبب النُّـــزول:

لمعرفة سبب النُّزول فوائد كثيرة من أهمِّها:

أ- معرفة حكمة التَّشريع، وأنَّه قام على رعاية مصلحة الأمَّة وذلك بدفع الضرر عنها وجلب الخير لها والرَّحمة بها، ومثال ذلك حادثة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها حين جاءت إلى الرَّسول ﷺ تشتكي زوجها وهي تقول: يا رسول الله أبلى شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سنِّي، وانقطع ولدي، ظاهر منِّي، اللَّهم إنِّي أشكوه إليك. فنزل قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} وزوجها هو: أوس بن الصامت، فشرع الله تعالى كفَّارة الظِّهار رحمة بها وبأمثالها، وصيانة للأُسَر من التَّفكُّك، وحماية للأبناء من التَّشرُّد.

ب- معرفة سبب النزول يعين على فهم مراد الآية، كما يدفع اللُّبس والإشكال عن معناها.

---

[1] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص85.

[2] ـ الزكشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 31 ـ 32.

[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: فلا وربك لا يؤمنون..، ج6، ص46، رقم الحديث: 4585.

ج- تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كلِّ من يسمع الآية، وذلك إذا عُرف سبب نزولها؛ لأنَّ ربط الأسباب بالمسبَّبات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كلٌّ ذلك من دواعي ثبوت المعلومات في الذِّهن ورسوخها، كما يساهم في استدعاء الآية، وتذكُّر معناها [(1)].

د- يعيينا على معرفة بعض أحداث السيرة النبوية، فكثيرا ما كان يترل القرآن إثر حوادث ووقائع، كما يعيننا على معرفة المكي والمدني، فسبب الترول يبين الحدث الذي نزلت لأجله السورة أو الآيات، وبناء على تحديد الحدث نعلم زمنه، وهذا ما يسهل علينا تحديد مكية الآية أو السورة من مدنيتها [(2)].

هل العبرة بعموم اللَّفظ أم بخصوص السَّبب؟

قبل الإجابة عن هذا السُّؤال لا بدَّ أن نبيِّن أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية عامَّة لجميع النَّاس، فلا يقتصر نزوله على الذين عاصروا التَّتريل فهو يشملهم ويشمل غيرهم، وإن كان البعض منهم ــ أعني الصَّحابة ــ كان السَّبب المباشر في نزول الآية للحِكَم التي أوردناها؛ إلاَّ أنَّ المنطق السَّليم يقتضي أن لا تختزل الآية فقط على من كان سببا لترولها، فهي تشمله بالطبع، وتشمل كل من وقع في نفس حكمه إلى أن تقوم السَّاعة.

وفي هذا يقول ابن تيمية: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إن كان المذكور شخصًا؛ كقولهم: إنَّ آية الظِّهار نزلت في امرأة أوس بن الصَّامت، وإنَّ آية اللِّعان نزلت في عويمر العَجْلاني أو هلال بن أمِّية، وإنَّ آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله... ونظائر هذا كثير مما يذكرون أنَّه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنَّ حكم الآية مختصٌّ بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإنَّ هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق"[(3)].

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 140 ـ 145.

[2] ـ ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 74 ـ 75.

3 ـ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1980م، ص15.

ومن هنا فإنَّ الأصل في النّصّ القرآني يجب أن يكون قانونا عامّا يجري على كلّ الأشباه والنّظائر لتلك القصّة الّتي نزلت الآية لأجلها، فالنَّصُّ يحمل على عمومه والسبب يندرج تحته، ومن هنا فإنَّ منهج القرآن يبني على الوقائع الخاصَّة أحكامًا ومبادئ عامَّة.

أمَّا إذا كانت هناك دلائل وقرائن تدلُّ على خصوصيَّة السَّبب فلا يمكن حينئذ تعميمه، وهذا قليلٌ في كتاب الله عَجَلَ، وقد نجد ذلك فيما يتعلَّق بخصوصيات النَّبي ﷺ أو أزواجه رضوان الله عليهنَّ، مثلما رواه الإمام البخاري عن أنس قال: " لَمَّا أُهْدِيَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رضي الله عنها إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَتْ مَعَهُ فِي البَيْتِ صَنَعَ طَعَامًا وَدَعَا القَوْمَ، فَقَعَدُوا يَتَحَدَّثُونَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْرُجُ ثُمَّ يَرْجِعُ، وَهُمْ قُعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾[الأحزاب: 53]" [1]، إذن فهذه الرِّواية الصَّحيحة التي تحكي لنا سبب نزول هذه الآية تختصُّ بالنَّبي ﷺ دون غيره، فانتظار الطَّعام عند الباب، والاستئناس في الحديث بعد الأكل هو محرَّم في حقِّ النَّبي ﷺ لارتباطاته ومسؤولياته، وفي حقِّ غيره مباح، وربَّما مستحبٌّ؛ لأنَّ المضيِّف يأنس من حديث ضيفه، ممَّا يقوِّي بينهما رابطة المحبَّة والأخوَّة.

كيفيَّة التَّوفيق بين الرِّوايات المتعدِّدة في أسباب النُّزول:

تعدُّد الرِّوايات في سبب نزول آية واحدة؛ له ثلاث صور وهي:

الصُّورة الأولى: أن تكون الرِّوايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلُّها بصيَغٍ غير صريحة، كأنْ يقول كلُّ راوٍ: «نزلت هذه الآية في كذا» أو «أحسبها نزلت في كذا»، فهذه الصُّورة لا تعارض فيها، فتكون الرِّوايات حينئذ داخلة في تفسير الآية.

الصُّورة الثَّانية: أن تكون الرِّوايات المتعدِّدة في سبب نزول آية واحدة بعضها صريح الصِّيغة في الدِّلالة على سبب النُّزول، وبعضها غير صريح، فحينئذ تكون الرِّواية الصَّريحة سببًا للنُّزول، بينما المحتملة تكون تفسيرًا للآية.

1 ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي...، ج6، ص119، رقم الحديث: 4792.

الصُّورة الثَّالثة: أن تكون جميع الرِّوايات الواردة في سبب نزول الآية الواحدة كلُّها صريحة في الدِّلالة على سبب نزول هذه الآية، وهذه الصُّورة يترتَّب عنها حالتين:

1) أن تكون هذه الرِّوايات المصرَّح بسبب نزولها أحدها صحيح دون الآخر، وفي هذه الحالة يقدَّم الصَّحيح على الضَّعيف.

2) أن تتساوى الرِّوايات في الصِّحة وهذا نادر، وفي هذه الحالة يرجَّح أحد الرِّوايات بأحد المرجِّحات كأن يكون راويها حاضر القصَّة مثلاً، وقد يحمل التَّرجيح على أنَّ الآية قد نزلت عَقِب سَبَبَيْنِ أو أكثر على أزمان متقاربة [1].

ومثاله: ما جاء في سبب نزول آيات الملاعنة من سورة النور حيث جاءت روايتان صريحتان لكنَّهما مختلفتان في سبب نزول هذه الآيات ولا مرجِّح بينهما فعندئذ نحكم بأنَّهما جميعا سببًا لنزول الآية، ففي الرِّواية الأولى روى فيها الإمام مسلم في صحيحه بسنده عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «إِنَّا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَتَكَلَّمَ، جَلَدْتُمُوهُ، أَوْ قَتَلَ، قَتَلْتُمُوهُ، وَإِنْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَاللهِ لَأَسْأَلَنَّ عَنْهُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَتَكَلَّمَ، جَلَدْتُمُوهُ، أَوْ قَتَلَ، قَتَلْتُمُوهُ، أَوْ سَكَتَ، سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، فَقَالَ: «اللهُمَّ افْتَحْ وَجَعَلَ يَدْعُو»، فَنَزَلَتْ آيَةُ اللِّعَانِ: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ" هَذِهِ الْآيَاتُ، فَابْتُلِيَ بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ، فَجَاءَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَلَاعَنَا فَشَهِدَ الرَّجُلُ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ثُمَّ لَعَنَ الْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، فَذَهَبَتْ لِتَلْعَنَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَهْ، فَأَبَتْ، فَلَعَنَتْ، فَلَمَّا أَدْبَرَا، قَالَ» لَعَلَّهَا أَنْ تَجِيءَ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا "، فَجَاءَتْ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا» [2].

---

[1] ـ ينظر: عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، مصر، ص ص: 167 ـ 173.

[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الطلاق، بَابُ انْقِضَاءِ عِدَّةِ الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا، وَغَيْرِهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ، ج2، ص1133، رقم الحديث: 1495.

أَمَّا الرِّواية الثَّانية فقد جاء في صحيح البخاري أنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ، قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ بِشَرِيكِ ابْنِ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «البَيِّنَةَ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ البَيِّنَةَ، فَجَعَلَ النَّبيُّ ﷺ يَقُولُ: «البَيِّنَةَ وَإِلَّا حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ» فَقَالَ هِلاَلٌ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ إِنِّي لَصَادِقٌ، فَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنَ الحَدِّ، فَنَزَلَ جبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ"، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: "إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ" (1).

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، بَابُ:{وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ}، ج6، ص100، رقم الحديث: 4747.

المبحث الثامن: القراءات القرآنية

يعدُّ علم القراءات من أجلِّ العلوم لارتباطه بكلمات القرآن الكريم، فتنوُّع قراءة الكلمة ينتج عنه أحيانًا اختلاف في المعنى، ومن هنا يجب على من يقدم على تفسير كتاب الله أن يكون ملمًّا بالقراءات ويحيط بها علمًا، يقول القسطلاني: "فإنَّ القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشَّرع وأساسه، وأصل كلّ علم ورأسه، والاستشراف على معانيه لا يتحقَّق إلا بفهم رصفه ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا منتهى لغرائبها ودقائقها إلاَّ بعد العلم بوجوه قراءاته، واختلاف رواياته؛ ومن ثَمَّ صار علم القراءات من أَجَلِّ العلوم النَّافعات، وإذا كان كل علم يَشرفُ بشرف متعلِّقه، فلا جرم خُصَّ أهله، الذين هم أهل الله وخاصَّته بأنَّهم المصطفَون من بريَّته، والمجتبون من خليقته، وناهيك بهذا الشَّرف الباذخ، والمجد الرَّاسخ، مع ما لهم من الفضائل اللاَّحقة، والمنازل السَّابقة، فمناقبهم أبدًا تُتلى، ومحاسنهم على طول الأمد تُجلى.."(1).

تعريف القراءات:

لغة: القراءات جمع قراءة، والقراءة مصدر الفعل: قَرَأَ بمعنى تلا، وبمعنى جمع (2).

اصطلاحا: "القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقله"(3).

"والقراءات هي اختلاف الوحي في الحروف وكيفيَّتها، غير أنَّها تعتمد كلِّية على التَّلقِّي والمشافهة؛ لأنَّ هذا العلم الإسلامي الخالص لا يحكم إلا بالسَّماع والمشافهة" (4).

موضوعه: كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النُّطق بها، وكيفية أدائها.

استمداده: النُّقول الصحيحة والمتواترة عن علماء القراءات إلى رسول الله ﷺ.

---

1 ـ القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: الشيخ عامر عثمان ود/ عبد الصبور شاهين، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1392هـ، ج1، ص6.

2 ـ ينظر تفصيل التعريف في المبحث الأول الصفحة رقم:

3 ـ المقدسي أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، إبراز المعاني من حرز الأماني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 772.

4 ـ المارغني إبراهيم بن أحمد بن سليمان، دليل الحيران على مورد الظمآن، دار الحديث، القاهرة، ص: 3.

حكمه: فرض كفاية تعلُّمًا وتعليمًا.

ثمرته وفائدته: العصمة من الخطأ في النُّطق بالكلمات القرآنية، وصيانتها عن التَّحريف والتَّغيير، والعلم بما يَقرأ به كلُّ إمام من الأئمَّة القرَّاء، والتَّمييز بين ما يُقرأ به، وما لا يُقرأ به.

مكانته: علم القراءات من أجلِّ العلوم قدرًا، وأعلاها منزلةً، لاتِّصاله بأشرف الكتب السَّماوية وأفضلها على الإطلاق، وهو القرآن الكريم، وشرف العلم من شرف المعلوم[1].

أنواع القراءات من حيث الصِّحة:

أنواع القراءات من حيث السَّند ستَّة:

1. المتواتر: وهو ما رواه جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم، ويمثِّل له العلماء بالقراءات السَّبع.
2. المشهور: ما كان دون المتواتر، وهو ما صحّ سنده، بأن رواه العدل الضَّابط عن مثله وهكذا، ووافق العربية، ووافق أحد المصاحف العثمانية، سواء كان من الأئمة السَّبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين.

وهذان النَّوعان يُقرأ بهما مع وجوب اعتقاد قرآنيتهما، ولا يجوز إنكار شيء منهما.

3. ما صحَّ سنده، وخالف الرَّسم أو العربية، ولم يشتهر الاشتهار المذكور، ومثاله: قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: 128]، قُرئ (من أنفَسكم) بفتح الفاء، وهذا النَّوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده.
4. الشّاذّ: وهو ما لم يصح سنده، مثاله قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، ورد بطريق غير صحيح أنَّه قُرئ (فاليوم نُنَحِّيك) بالحاء المهملة بدل الجيم.

---

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 314 ـ 316.

5. الموضوع: أي المكذوب، وهو ما ينسب إلى قائله من غير أصل، مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، افتري على أحد الأئمة أنَّه قرأ: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ)، وكيف يخشى الخالق المخلوق؟ ولماذا؟

6. المُدْرج: وهو ما زيد من القراءات على وجه التَّفسير، مثاله قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ﴾ [المائدة: 89]، قرأ ابن مسعود (ثلاثة أيام متتابعات)، فكلمة متتابعات ليست قرآنا؛ بل زيدت في القراءة على سبيل التَّفسير ورأي المذهب [1].

ومن العلماء من يقسِّمها إلى قسمين رئيسين: المتواتر ويشمل أيضًا المشهور، والشَّاذُّ ويشمل بقيَّة الأنواع.

الفرق بين القراءات المتواترة والشَّاذَّة:

أ- إنَّ القراءات المتواترة صحيحة النِّسبة إلى رسول الله ﷺ بنقل الجمع الكثير عن الجمع الكثير حتى يبلغ إلى رسول الله ﷺ، بينما القراءات الشاذة لا تصحّ نسبتها إلى رسول الله ﷺ.

ب- يجب اعتقاد القراءات المتواترة بأنَّها قرآن ويكفر جاحدها جملة، بينما الشَّاذَّة يحرم الاعتقاد بأنَّها قرآن؛ بل قد يكفر معتقدها إذا علم بطلان سندها.

ج- هذه القراءات هي التي يقرأ بها القرآن الكريم ويتعبَّد بها في الصَّلاة وخارج الصَّلاة، وهي معجزة، بخلاف الشَّاذَّة فهي لا يقرأ بها في الصَّلاة أو خارج الصَّلاة، ولا يتعبَّد الله تعالى بتلاوتها.

شروط القراءة الصحيحة:

حتَّى تكون القراءة صحيحة اشترط العلماء لها شروطًا ثلاثة يجب أن تكون مجتمعة فمتى اختلَّ ركن منها، أو أكثر أُطْلِقَ عليها أنَّها ضعيفة، أو شاذَّة، أو باطلة، وهذه الشُّروط هي:

---

[1] ـ مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م، ص ص: 118 ـ 119.

1) التواتر: وهو الشَّرط الأساس، لأنَّ القرآن الكريم كلُّه منقول بالتَّواتر فهو من هذه الجهة قطعي الثُّبوت.

2) موافقة اللُّغة العربية ولو بوجه: فلا بدَّ أن توافق القراءةُ اللُّغةَ العربية، ولا يلزم أن توافق الأفشى في اللُّغة؛ بل يكفي أن توافق أيَّ وجه من أوجه اللُّغة؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين.

3) موافقة الرَّسم العثماني ولو احتمالا: والمراد بالموافقة الاحتمالية ما يكون من نحو هذا كقراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]، فإنَّ لفظة "مَلِك" كُتبت في جميع المصاحف بحذف الألف منها، فتقرأ "مَلِكِ" وهي بهذا توافق الرَّسم تحقيقًا، وتقرأ "مالك" لتوافق الرَّسم احتمالًا وهكذا.

والحقُّ أنَّ الشَّرط المعتبر في القراءة القرآنية هو التَّواتر فحسب، لأنَّه لم تثبت قراءة بالتَّواتر، ثم خالفت مصحفًا أو لغة عربية، ولذا كان من الأنسب الاقتصار على شرط التَّواتر، وأن يعدَّ الشرطان الآخران شرطين بالتَّبعيَّة لا بالأصالة، فمثلا: لو قرأ أحد "مَلَكَ يوم الدين" فهي توافق اللُّغة والمصحف؛ لكنَّها لم تُنقل بالتواتر، فالأصل هو التَّواتر.

فوائد الاختلاف في القراءات الصَّحيحة:

ولاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

1. الدَّلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التَّبديل والتَّحريف حيث يتنافس كلُّ مصر من الأمصار على ضبط قراءة معيَّنة معتنيًا بها، ومحافظًا عليها.
2. التَّخفيف عن الأمَّة وتسهيل القراءة عليها.
3. إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدلُّ كلُّ قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللَّفظ كقراءة: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: 6]، بالنَّصب والخفض في "وأرجلَكم" ففي قراءة النَّصب بيان لحكم غسل الرِّجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]، وقراءة الجرِّ بيانٌ لحكم المسح على الخفَّين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن.

4. بيان ما يُحتمل أن يكون مُجملًا في قراءة أخرى كقراءة: "يطهرن" في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: 222]، قُرِئ بالتَّشديد والتَّخفيف، فقراءة التَّشديد مبيِّنة لمعنى قراءة التَّخفيف عند الجمهور، فالحائض لا يحلُّ وطؤُها من زوجها حتَّى ينقطع منها دم الحيض وتتطهَّر بالماء (1).

كيف نتعامل مع القراءات؟

عند قراءتنا لكتب التَّفاسير نجد أنَّ بعض الكلمات القرآنية لها أكثر من قراءة، وقد يتغيَّر المعنى بناء عليها، كما نجد أنَّ بعض المفسرين يتعاملون مع القراءات المتواترة بشكل غير منهجي فيرجِّحون بعضها على بعض، وأحيانًا يردُّون بعضها وهكذا، ومن هنا فلا بدَّ لنا من منهجيَّة صحيحة لكيفيَّة التَّعامل مع القراءات وهي:

1. ــ نميِّز ما بين المتواتر وغيره، فما كان متواترًا فنحكم عليه قرآنًا، وما كان غير ذلك فلا نعتدُّ به قرآنا.
2. ــ إذا كانت الكلمة الواحدة تواتر فيها أكثر من قراءة فعندها نؤمن بأنَّ جميعها وحي من عند الله ﷻ ولا نردُّ منها شيئًا.
3. ــ الأصحُّ أن لا نرجِّح بين شيئين من المتواتر من حيث الثُّبوت؛ لأنَّ مصدرهما واحد، ولكن يمكن القول بأفصحيَّة بعضها على بعض، باعتبار أنَّ بعض القراءات نزلت لتوافق ما عليه بعض اللَّهجات العربية.
4. ــ يمكننا توجيه القراءات وذلك ببيان كيفية مجيئها على هذا الوجه دون الآخر من حيث اللُّغة والإعراب والسِّياق، ومن هنا فالتَّوجيه هو المطلوب لا التَّرجيح، وعلى هذا الأساس نجد أنَّ العلماء أثناء تعرُّضهم للقراءات يبحثون عن معناها أو إعرابها وهكذا، وكلُّ ذلك يكشف لنا روعة الإعجاز في القرآن.
5. ــ كما يجوز الجمع بين أكثر من قراءة في النص الواحد أثناء التلاوة، وخاصة لغايات التعليم، لكن بشرط أن يقرأ أولا بقراءة معينة ثم ينتهي من الآية أو السورة القصيرة ليبدأ في قراءة جديدة.

---

[1] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 181.

نبذة عن القراء:

يلخِّص الجدول الآتي القرَّاء العشرة المتَّصفون بالضَّبط، والأمانة، وطول ملازمتهم للقراءة، وشهرتهم في الآفاق، واتِّفاق العلماء على الأخذ منهم وهم:

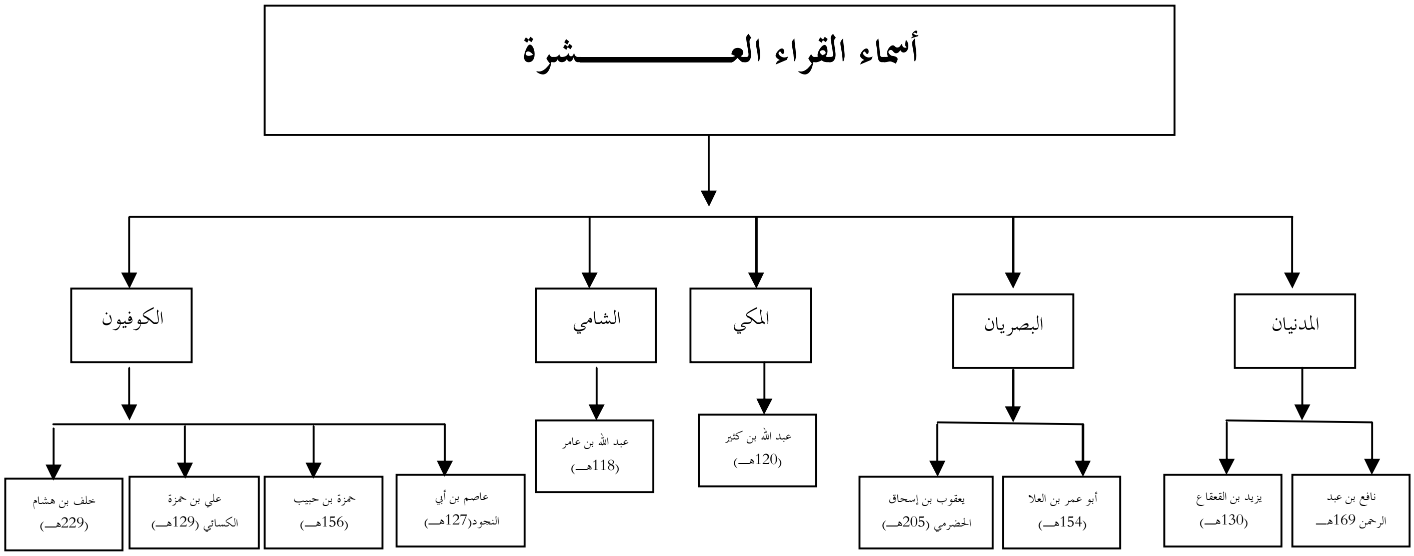

ومما يلاحظ على سِيَر القرَّاء ما يأتي:

أ- أنَّهم من أمصار الإسلام المشهورة في ذلك الوقت، وهذا يؤكِّد أنَّ عدد المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ، وأرسل معها قرَّاء إلى الأمصار قد أنجبت فيما بعد قرَّاءً مشهورين.

ب- أنَّ بعضهم من التَّابعين.

ج- أنَّهم من الموالي باستثناء ابن عامر وأبي عمرو، وفيهم يصدق قول النَّبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»(1)، فهم ممَّن رفعهم الله بالقرآن وأبقى ذكرهم في العالمين رغم أنَّهم من الموالي، ولذلك لا اعتبار في الدِّين باللَّون أو العِرْق، فكلٌّ من أراد أن يخدم هذا الدِّين من عرب أو عجم فمرحبًا به؛ لأنَّ

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فَضْلِ مَنْ يَقُومُ بِالْقُرْآنِ، ج1، ص559، رقم الحديث: 817.

ميزان التَّفاضل بين النَّاس هو التقوى لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: 13].

د- أنَّهم كانوا على أعلى درجة من الضَّبط، والإتقان، والعلم بالقراءات، والتَّفرُّغ لها، حتَّى اشتهروا في زمانهم وَفَاقوا أقرانهم، وشهد لهم أهل عصرهم بذلك.

المبحث التاسع: المحكم والمتشابه.

يبحث المحكم والمتشابه في ماهية ألفاظ القرآن الكريم، فبعض معاني القرآن الكريم واضحة الدِّلالة، بيِّنة المعنى، والبعض الآخر خفي دلالته، وغمض معناه، فلا بدَّ أن يُفهم هذا الأخير وفق قواعد معينة.

أقسام المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وبيان معنى كلِّ قسم:

ينقسم المحكم والمتشابه في القرآن الكريم إلى قسمين رئيسين هما:

أوَّلا: الإحكام العام والتَّشابه العام:

أ- الإحكام العام: وردت آيات كثيرة تصف القرآن الكريم بأنَّه محكم كلُّه فمنها قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]، وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1].

فالآيتان الكريمتان وغيرهما تشيران بأنَّ القرآن الكريم كلُّه محكم، ومعنى كونه محكم أي: متقن يمتنع عنه الخلل والنَّقص في ألفاظه ومعانيه، كما لا يتطرَّق إليه الباطل، وهذا المفهوم مأخوذ من المعنى اللُّغوي للإحكام.

ب- التَّشابه العام: دليله قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: 23]، فالآية الكريمة تشير بأنَّ القرآن كلُّه متشابه بمعنى أنَّه يشبه بعضه بعضًا في الإتقان، والإعجاز، والسَّلامة من المعارضة، وهذا هو التَّشابه العام بين آيات القرآن، وهذا المعنى مستقى من المفهوم اللُّغوي كمثل قوله تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ﴾ [البقرة: 25].

ثانيا: الإحكام الخاص، والتَّشابه الخاص:

إذا كان القرآن الكريم كلّه محكمًا بمعنى: أنَّه متقن لا يتطرَّق إليه الخلل والنَّقص، وهو في آن واحد كلُّه متشابه بمعنى: أنَّ آياته يشبه بعضها بعضًا في الإعجاز والفصاحة، فإنَّه قد وردت آية قرآنية تصف القرآن بأنَّ بعضه محكم وبعضه الآخر متشابه، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ

يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: 7]، فمن هذه الآية يتأكّد لنا أنَّ الإحكام والتشابه هنا يفيد معنى غير المعنى الأول، وهو خاصٌّ ببعض الآيات دون بعض، وهو موضوع بحثنا.

والمحكم والمتشابه في المفهوم الاصطلاحي عرَّفه الزَّرقاني بقوله: "المحكم ما لا يحتمل إلاَّ وجهًا واحدًا من التَّأويل، أمَّا المتشابه فهو ما احتمل أوجهًا"[1]، وقيل: "المحكم: ما استقلَّ بنفسه، ولم يحتج إلى بيان. والمتشابه: ما لا يستقلُّ بنفسه، واحتاج إلى بيانٍ بِرَدِّهِ إلى غيره"[2]، وقيل: "إِنَّ الْمُحْكَمَ هُوَ الْوَاضِحُ الْمَعْنَى الظَّاهِرُ الدَّلَالَةِ، إِمَّا بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ أَوْ بِاعْتِبَارِ غَيْرِهِ وَالْمُتَشَابِهُ: مَا لَا يَتَّضِحُ مَعْنَاهُ، أَوْ لَا تَظْهَرُ دَلَالَتُهُ لَا بِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ وَلَا بِاعْتِبَارِ غَيْرِهِ"[3].

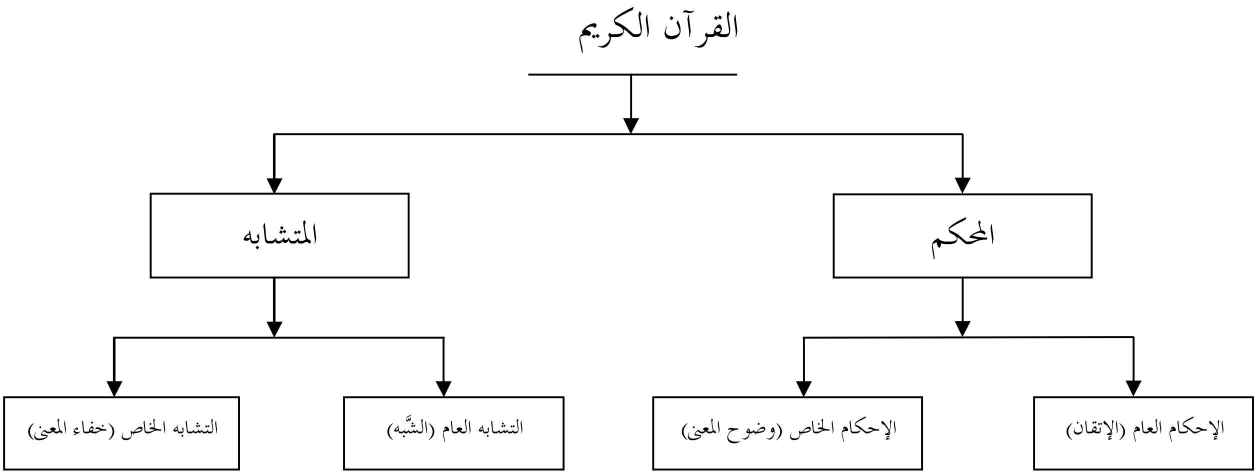

اختلاف العلماء في معنى الآية السابعة من سورة آل عمران:

اختلف العلماء في مسألة الوقف أو عدمه عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: 7]، وهذا الاختلاف نتج عنه:

1. ــ في حال الوقف على لفظ الجلالة: فحينئذ تكون الواو في الآية للاستئناف، فالعلماء لا يعلمون تأويل المتشابه، وأدلَّة هذا الفريق القائل بوجوب الوقف هي:

---

[1] ـ الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج2، ص272.

[2] ـ مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص: 221.

[3] ـ الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1414هـ، ج1، ص360.

أ- أنَّ النَّبي ﷺ قال: «فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»(1).

ب- ذمَّت الآية الكريمة متَّبعي المتشابه، ووصفتهم بالزَّيغ، وابتغاء الفتنة، كما أنَّها ذكرت الرَّاسخين هنا ليكونوا محلَّ قدرة لغيرهم في التَّسليم بالمتشابه.

2. ــ في حال العطف: إذا قلنا أنَّ الواو للعطف، فالعلماء حينها يدركون معنى المتشابه في القرآن، وأدلة هؤلاء هي:

أ- ثبت أنَّ النَّبي ﷺ كان يدعو لابن عباس وهو من الرَّاسخين في العلم بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»(2).

ب- الآية لم تذم المتأوِّلين بشكل عام، وإنَّما ذمَّت من يتَّبع المتشابه لإثارة الفتن، واتِّباع الأهواء، يقول الإمام النَّووي: "أَنَّ الرَّاسِخِينَ يعلمُونَ التَّأويلَ؛ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يُخَاطِبَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَقَدْ اتَّفَقَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا لَا يُفِيدُ" (3).

التوفيق بين الرَّأيين:

قبل أن نرجِّح رأيًا على رأيٍ لا بدَّ أوَّلا من تحرير محلِّ الخلاف وهو معرفة معنى "التَّأويل" لنحكم بعد ذلك بأنَّ الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه أم لا؟ وبرجوعنا إلى القرآن الكريم نجد أنَّ معنى التأويل يأتي على معانٍ عدَّة هي:

1. التَّفسير: أي الكلام الذي يُفسَّر به اللَّفظ حتى يُفهم معناه كمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ۝﴾ [يوسف: 44]، وهذا مستخدم أيضًا عند القدامى فهم يعبِّرون عن التَّفسير بالتأويل كتفسير الطبري الذي سمَّاه: "جامع البيان في تأويل آي القرآن".

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب تفسير القرآن، باب منه آيات محكمات، ج6، ص33، رقم الحديث: 4547.

[2] ـ الحاكم النيسابوري، المستدرك، مصدر سابق، كتاب الصحابة، باب ذِكْرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ج3، ص516، رقم الحديث: 6280.

[3] ـ النووي يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1392م، ج16، ص218.

2. معرفة حقيقة الأشياء الذي تؤول إليه: كمعرفة كُنْه الله سبحانه، وإدراك حقيقة صفاته وأسمائه، أو معرفة حقيقة اليوم الآخر وما يحدث فيه من تفاصيل ودقائق، قال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: 53].
3. صرف اللَّفظ الظَّاهر المتبادر إلى الذِّهن عند إطلاقه إلى معنى آخر محتمل لوجود قرينة، وهذا اصطلاح أكثر المتأخِّرين.

وبناء على هذه المعاني المتعدِّدة لمفهوم التأويل نحكم بما يأتي:

أ- إذا كان التَّأويل بالمعنى الأوَّل، فالرَّاسخون في العلم يعلمون تأويله؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربيٍّ مبين، ولم يخاطبنا الله بما لا نفهمه، وبناء عليه لا نقف على لفظ الجلالة.

ب- إذا كان التَّأويل بالمعنى الثَّاني: فالرَّاسخون في العلم لا يعلمون حقيقة الأمور الغيبية وما تؤول إليه، وبناء عليه نقف على لفظ الجلالة.

ج- أمَّا إذا كان التَّأويل بالمعنى الثَّالث: فالرَّاسخون يعلمون تأويل المتشابه، كابن عباس وغيره فلا نقف على لفظ الجلالة.

وبهذا يتضح أنَّه لا منافاة بين المذهبين في النِّهاية، وإنَّما الأمر يرجع إلى الاختلاف في معنى التَّأويل (1).

كيفية فهم آيات الصِّفات:

بناء على ما سبق فإنَّ للعلماء منهجين رئيسين في كيفيَّة فهم الآيات المتشابهة المتحدِّثة عن صفات الله وهما:

1) منهج السَّلف: وهم يؤمنون بهذه الصِّفات كما جاءت من دون تكييفٍ، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، فهم يُمِرُّون الأخبار الواردة في هذا الموضوع كما جاءت على ظاهرها ويَكِلون علمها إلى الله (2).

---

[1] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 222 ـ 224. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 171 ـ 173.

[2] ـ ينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1995م، ج4، ص2.

2) منهج الخلف: وهم المعتزلة والأشاعرة والإباضية، فهم يقولون بتأويل الصِّفات التي يوهم ظاهرها التَّشبيه إلى معنى آخر تحْتَمِله اللُّغة والسِّياق القرآني، لأنَّهم يعتقدون أنَّ الإيمان بظاهر هذه الصِّفات يؤدِّي إلى تشبيه الخالق بالمخلوق.

الأحرف المقطعة من المتشابه القرآني:

تُدرس الحروف المقطَّعة في مبحث المحكم والمتشابه كنموذج يُظهر تنوُّع أقوال العلماء فيها، والحروف المقطعة هي التي تتواجد في بعض بدايات سور القرآن الكريم وعددها تسع وعشرون سورة [1]، وهي تتكوَّن من أربعة عشر حرفًا مجموعة في قولهم: "نصٌّ حكيم قاطع له سرٌّ" فبعض السُّور افتُتِحت بحرف واحد، ومنها ما افتتح بحرفين أو بثلاثة، أو بأربعة، أو بخمسة، وسمِّيت بالمقطَّعة لكونها تُقرأ مقطَّعة مجزَّأة، وهي لا تفيد معنى ظاهرا حال تركيبها.

واختلف العلماء في الحروف المقطعة في أوائل السور على قولين [2]:

القول الأول: أنَّه علم مستور، وسرٌّ محجوب استأثر الله به، ورُوِي عن الصِّدِّيق رضي الله عنه أنَّه قال: في كلِّ كتاب سرٌّ، وسرُّه في القرآن أوائل السُّوَر، وقال الشَّعبي: إنَّها من المتشابه، نؤمن بظاهرها، ونَكِل العلم فيها إلى الله عز وجل.

لكنَّ الإمام الرازي ردَّ هذا القول قائلا: وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ أَنْكَرُوا هَذَا الْقَوْلَ، وَقَالُوا لَا يَجُوزُ أَنْ يَرِدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا لَا يَكُونُ مَفْهُومًا لِلْخَلْقِ، وَاحْتَجُّوا بِالْآيَاتِ التي توجب التَّدبر والنَّظر في كتاب الله... واحتجُّوا بالمعقول بقولهم: أَنَّهُ لَوْ وَرَدَ شَيْءٌ لَا سَبِيلَ إِلَى الْعِلْمِ بِهِ لَكَانَتِ الْمُخَاطَبَةُ بِهِ تَجْرِي مَجْرَى مُخَاطَبَةِ الْعَرَبِيِّ بِاللُّغَةِ الزَّنْجِيَّةِ، وَلَمَّا لَمْ يَجُزْ ذَاكَ فَكَذَا هَذَا، وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ الْإِفْهَامُ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَفْهُومًا

[1] ـ أغلب السور التي افتتحت بالأحرف المقطعة مكية، باستثناء الزهروان البقرة وآل عمران فهما مدنيتان، وفي سورة الرعد خلاف والأرجح أنها مكية.

[2] ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 172 ـ 175. وينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج3، ص ص: 30 ـ 34. وينظر: محمد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، ط1، دار عالم القرآن، حلب، 2005م، ص ص: 123 ـ 124.

لَكَانَتِ الْمُخَاطَبَةُ بِهِ عَبَثًا وَسَفَهًا، وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالْحَكِيمِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّ التَّحَدِّيَ وَقَعَ بِالْقُرْآنِ وَمَا لَا يَكُونُ مَعْلُومًا لَا يَجُوزُ وُقُوعُ التَّحَدِّي بِهِ (1).

القول الثاني: المراد منها معلوم، وذكروا ما يزيد عن عشرين وجهًا، ومن أهمّ هذه الأوجه ما يأتي:

1. أنّها تمثّل بعضًا من أسماء الله، فـــ "ألم" الألف من الله، واللاّم من لطيف، والميم من المجيد.
2. أنّها للقَسَم، أقسم الله بها على ما يأتي كالقَسَم بالضُّحى واللّيل والطُّور والفجر.
3. أنّها أسماء للسُّور، ولتمييز بعضها عن بعض، وقال الرازي: هذا قول أكثر المتكلّمين.
4. هذه الأحرف هي سرُّ القرآن، ولا يعلم السِّرَّ إلا الرَّاسخين في العلم.
5. الغاية من هذه الأحرف صرف العرب عن اللّغو إذا سمعوا القرآن، ودفعهم إلى التّعجب من أسلوبه والإنصات له، لكي ترقّ قلوبهم إذا سمعوا القرآن.
6. للدّلالة على أنّ القرآن مؤلف من حروف، وإنّ هذا الأسلوب يدفع العرب للبحث عن أوجه الحكمة من هذا الافتتاح، وتلمُّس جوانب الإعجاز.

ولعلّ الرَّأي الرَّاجح أنّها للتَّحدي والإعجاز، بمعنى أنّ الله يقول لهم: إنّ هذا القرآن مؤلَّف من هذه الحروف التي تنطقون بها، وأتحدّاكم بأن تأتوا بسور من مثله، فيكون هذا تقريعًا لهم وتعجيزًا، ولا يتعارض أن تكون أيضا للتّنبيه(2).

ومما يؤكّد هذا الرأي أنّ غالب هذه الأحرف المقطّعة يتبعها الحديث عن القرآن نفسه كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1 – 2].

---

[1] - ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج2، ص ص: 249 - 250.

[2] - مال إلى هذا الرأي الإمام الزمخشري. ينظر: الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج4، ص70.

المبحث العاشر: النَّاسخ والمنسوخ.

لا تزال قضية النَّاسخ والمنسوخ مثار جدل بين العلماء بين مثبت ونافٍ لها، وبين موسِّع ومضيِّق.

فنُفَاة النَّسخ يرون أنَّ النَّسخ قولٌ بالتَّعارض في القرآن لعدم إمكانية الجمع بينه وبين المنسوخ، وفي نفس الوقت هو إبطال لحكم الآيات المنسوخة والقرآن لا يأتيه الباطل، وغير ذلك مما ذكروه في هذا الباب.

ونحن سنعرض مبحث النَّاسخ والمنسوخ من زاوية من يعتدُّ به ويُثبته، فقد ألَّف فيه كثير من العلماء منهم: أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو داود السَّجِسْتاني، وأبو جعفر النَّحاس، ومكِّي بن أبي طالب، وابن الأنباري، وابن العربي المالكي، وابن الجوزي، وغيرهم كثير، ومن المعاصرين مصطفى زيد.

تعريف النسخ:

لغة: يطلق على معنيين هما:

ـــ الإبطال والإزالة: كقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: 52]، وكقولهم نسخت الشمس الظل إذا أزالته.

ـــ النَّقل: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، أي نقل الأعمال إلى الصُّحف (1).

اصطلاحا هو: رفع الحكم الشَّرعي بدليل شرعي (2).

فمن خلال التَّعريف لا بدَّ من تحقُّق النَّسخ أمور أربعة هي:

أوَّلها: أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًّا، ولا يكون الحكم شرعيًّا إلاَّ إذا كان دليله قرآنا أو سنَّة، وأن يكون من الأحكام العمليَّة لا من أمور العقائد والأخبار والقصص والأخلاق.

ثانيها: أن يكون دليل رفع الحكم دليلا شرعيًّا، أي أن يكون أيضًا من القرآن والسُّنَّة.

---

[1] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص 175.

[2] ـ الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص 176، وينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 238.

ثالثها: أن يكون هذا الدَّليل الرَّافع متراخيًا عن دليل الحكم الأوَّل غير متَّصل به، فالنَّاسخ هو الخطاب الرَّافع المتأخِّر النُّزول، والمنسوخ هو الحكم المرفوع المتقدِّم النُّزول.

رابعها: أن يكون بين الدَّليلين (النَّاسخ والمنسوخ) تعارض حقيقي، لا يمكن الجمع بينهما بأيِّ وجه من الوجوه.

بناء على التَّعريف لا يدخل في النَّسخ:

أ- ما كان متفشِّيًا من العادات الجاهلية ثم حُرِّم كشرب الخمر، ووأد البنات، والتبني... لأنَّ وجودها في الأصل لم يكن عن طريق دليل شرعي.

ب- ما فعله عمر بن الخطاب من إيقاف سهم المؤلَّفة قلوبهم، وحدِّ السرقة، ومنع الزَّواج بالكتابيات...إذ ليس فعله خطابًا شرعيًّا؛ بل اجتهادٌ مؤقَّت.

كيف يعرف النَّسخ:

يعرف النَّسخ بأحد الطرق الآتية:

1. ــ النَّقل الصَّريح عن النَّبي ﷺ أو عن صحابي، كحديث: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»[1].
2. ــ إجماع الأمَّة على أنَّ هذا ناسخ وهذا منسوخ.
3. ــ معرفة المتقدِّم من المتأخِّر وذلك بالنَّظر والتأمُّل في التَّاريخ.

ولا يعتمد في النَّسخ على الاجتهاد، أو قول المفسِّرين، أو التَّعارض بين الأدلَّة ظاهرًا.

أقسام النَّسخ:

للنَّسخ خمسة أقسام هي [2]:

1) ــ نسخ القرآن بالقرآن: وهذا القسم متَّفق على جوازه ووقوعه وهذا بالنسبة للقائلين بالنَّسخ، فآية الاعتداد بالحول مثلًا نُسِخَت بآية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرٍ.

---

[1] ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب الجنائز، ج1، ص532، رقم الحديث: 1393.

[2] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص243 ـ 244. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص ص: 159 ـ 160.

2) ــ نسخ القرآن بالسُّنَّة الآحادية والجمهور على عدم جوازه؛ لأنَّ القرآن متواتر يفيد اليقين، والآحادي مظنون، ولا يصحُّ رفع القطعيِّ بالمظنون.

3) ــ نسخ القرآن بالسُّنَّة المتواترة: أجازه مالك وأبو حنيفة وأحمد في رواية، لاعتبارهما وحيًا، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [النجم: 3 – 4]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: 44]، والنَّسخ نوع من البيان، لكن مَنَعَه الشَّافعي وأهل الظَّاهر وأحمد في الرِّواية الأخرى، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106]، والسُّنَّة ليست خيرًا من القرآن ولا مثله.

4) ــ نسخ السُّنَّة بالقرآن، ويجيزه الجمهور، فالتَّوجه إلى بيت المقدس كان ثابتًا بالسُّنَّة، وليس في القرآن ما يدلُّ عليه، وقد نُسِخَ بالقرآن في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].

5) ــ نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة: وهذا جائز بشرط أن ينسخ المتواترُ المتواترَ والآحادَ، بينما الآحادُ لا ينسخ إلا الآحادَ مثل قوله ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»(1).

أنواع النَّسخ في القرآن:

النَّسخ الواقع في القرآن يتنوَّع إلى أنواع ثلاثة هي كالآتي:

1. نسخ الحكم والتِّلاوة (النَّصِّ) معًا: فقد أجمع عليه القائلون بالنَّسخ من المسلمين ويدلُّ على وقوعه سمعًا ما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: "كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ

[1] ـ الحاكم، المستدرك، مصدر سابق، كتاب الجنائز، ج1، ص532، رقم الحديث: 1393.

الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ، بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ"(1).

2. نسخ الحكم وبقاء التِّلاوة (النَّص): ومعظم المنسوخ في القرآن من هذا النَّوع، ومثاله: آية تقديم الصَّدقة عند إرادة مناجاة الرَّسول ﷺ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢﴾ [المجادلة: 12]، فهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]، إذن فحكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع أنَّ تلاوتهما باقية.

3. نسخ التِّلاوة وبقاء الحكم: ويمثَّل له بالرَّجم، وقد ورد في مسند الإمام أحمد بسنده عَنْ زِرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: «كَأَيِّنْ تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَحْزَابِ؟ أَوْ كَأَيِّنْ تَعُدُّهَا؟» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ آيَةً، فَقَالَ: " قَطُّ، لَقَدْ رَأَيْتُهَا وَإِنَّهَا لَتُعَادِلُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَقَدْ قَرَأْنَا فِيهَا: الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، فهذه الآية لم يعد لها وجود بين دفَّتي المصحف ولا على ألسنة القرَّاء مع أنَّ حكمها باقٍ على إحكامه لم ينسخ (2).

أنواع النَّسخ من حيث البدل وعدمه:

ينقسم هذا النَّوع إلى قسمين هما:

1) ـــ النَّسخ ببدل: أيْ أن يُؤتى بحكم جديد بدل المنسوخ، ومعظم هذا النَّسخ في القرآن من هذا القسم.

2) ـــ النَّسخ بدون بدل: فيُنْسخ الحكم ولا بدل له، كنسخ الصَّدقة بين يدي نجوى رسول الله ﷺ بدون بديلٍ لها، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ

---

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب الرضاع، بَابُ التَّحْرِيمِ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ، ج2، ص1075، رقم الحديث: 1452.

[2] ـ ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان، مصدر سابق، ج2، ص209.

﴿بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة: 12]، منسوخة بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المجادلة: 13].

وأنكر بعض المعتزلة والظَّاهرية ذلك، وقالوا: إنَّ النَّسخ بغير بدل لا يجوز شرعًا، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106]، حيث أفادت الآية أنَّه لا بدَّ أن يؤتى مكان الحكم المنسوخ بحكم آخر جديد يكون خيرًا منه أو مثله.

وأجابوا عن ذلك: بأنَّ الله تعالى إذا نسخ حكم الآية بغير بدل فإنَّ هذا يكون بمقتضى حكمته، رعاية لمصلحة عباده، فيكون عدم الحكم خيرًا من ذلك الحكم المنسوخ في نفعه للنَّاس، ويصحُّ حينئذ أن يُقال: إنَّ الله نسخ حكم الآية السَّابقة بما هو خير منها حيث كان عدم الحكم خيرًا للنَّاس.

أنواع النَّسخ من حيث التَّشديد والتَّخفيف:

لَمَّا عرفنا أنَّ النَّسخ قد يكون ببدل، وهذا البدل له ثلاث حالات هي:

1. أن يكون أشدَّ من المنسوخ: كنسخ الحبس في البيوت في قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [النساء: 15]، نسخت بالجلد في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2].
2. أن يكون أخفَّ من المنسوخ: ومثاله عدة المتوفَّى عنها زوجها فقد كانت سنة ثمَّ خفِّفت بأربعة أشهر وعشر.
3. أن يكون مساويًا للمنسوخ: كنسخ التَّوجُّه إلى بيت المقدس بالتَّوجه إلى الكعبة في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144].

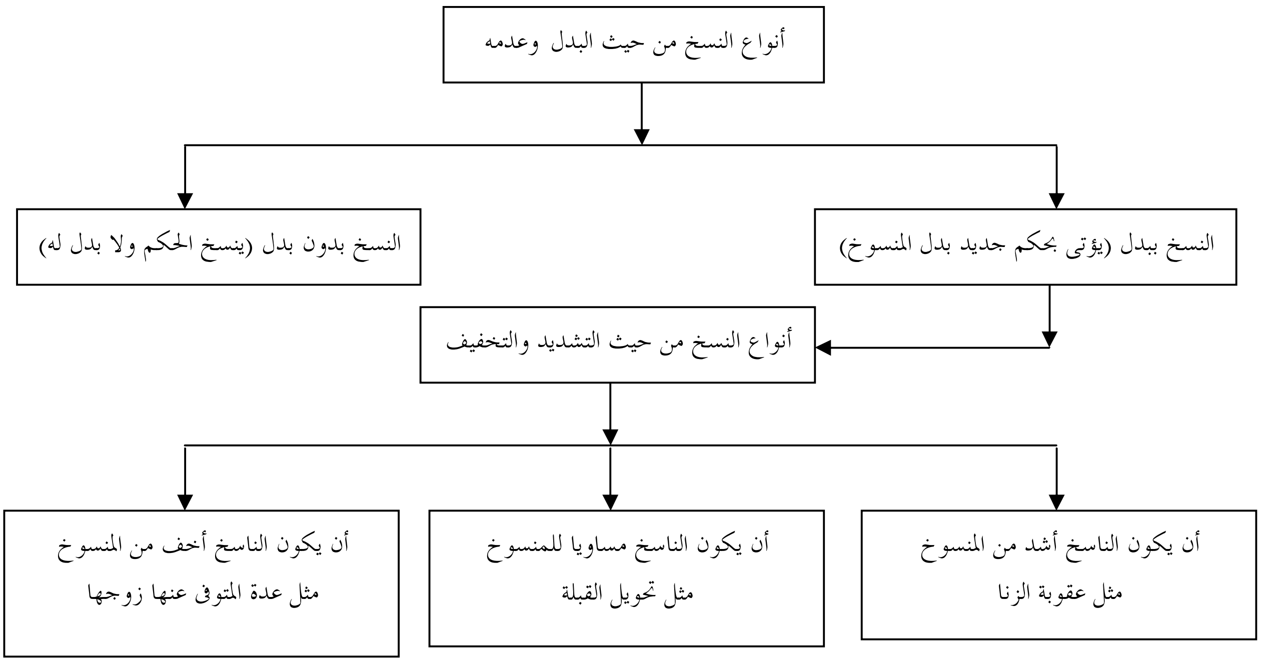

الأسباب التي جعلت من بعض العلماء يتوسَّعون من ذكر المنسوخ في القرآن:

1) ــ اعتبار ما شُرِعَ لسبب ثم زال السَّبب أنَّه من قبيل المنسوخ، كالحثِّ على الصَّبر وتحمُّل أذى الكفار في بداية الدَّعوة حين الضُّعف والقلَّة، قالوا إنَّه منسوخ بآيات القتال، والحقيقة أنَّ الأوَّل - وهو وجوب الصَّبر والتَّحمل - كان ويكون في حالة الضُّعف والقلَّة كالذي يعيشه حال أكثر المسلمين اليوم، أمَّا إذا وُجِدَت الكثرة والقوَّة وجب الدِّفاع عن العقيدة بالقتال، وهو الحكم الثاني.

2) ــ اعتبار ما أبطله الإسلام من أمر الجاهلية أو من شرائع الأمم السابقة نسخًا: كتحديد عدد الزَّوجات بأربع، وتحريم التَّبني، ومثل هذا ليس نسخًا، لأنَّ وجوده في الأصل لم يكن بدليل شرعي.

3) ــ اعتبار التَّخصيص والبيان نسخًا: فاعتبروا قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41]، أنَّها ناسخة لقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: 17]، والصَّحيح أنَّها غير منسوخة لأنَّ ذلك من باب التَّخصيص.

4) ــ اعتبار ما ظاهره التَّعارض نسخًا: ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة: 115]، أنَّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 144]، والحقيقة لا تعارض بين الآيتين، فالأصل التَّوجه إلى البيت الحرام؛ ولكن من عمِيَت عليه القبلة، أو في حال صلاة النَّافلة على الرَّاحلة في السَّفر فلا بأس من التَّوجه لغير القبلة، وقد ثبت أنَّ النَّبي ﷺ «كان يُصَلِّي السُّبْحَةَ بِاللَّيْلِ فِي السَّفَرِ عَلَى ظَهْرِ رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ»(1).

---

[1] ـ مسلم، صحيح مسلم، مصدر سابق، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، بَابُ جَوَازِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ عَلَى الدَّابَّةِ فِي السَّفَرِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ، ج1، ص487، رقم الحديث: 700.

المبحث الحادي عشر: علم المناسبات.

علمنا فيما سبق أنَّ القرآن الكريم قد نزل منجَّمًا في أكثر من عشرين سنة، والآيات في المصحف ليست على ترتيب النُّزول، أو على حسب ترتيب المواضيع حيث يفرد كلُّ موضوع على حدة؛ أو حسب طول السُّور وعدد آياتها؛ بل هو ترتيبٌ توقيفي من عند الله ﷻ، وهذا ما يدعونا إلى التَّفكُّر واستنباط الحِكَم والفوائد من هذا التَّرابط العجيب بين الآيات فيما بينها من جهة، وبين ترتيب السُّور فيما بينها من جهة أخرى.

تعريف المناسبة:

المناسبة في اللُّغة: المقاربة، يقال فلان يناسب فلانًا أي: يقرب منه ويُشاكله.

اصطلاحا: "هي الرَّابطة بين شيئين بأيِّ وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السُّورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كلِّ آية بما قبلها وما بعدها"[1].

أو: هو علم يكشف عن أسرار ترتيب الآيات والسُّور في القرآن الكريم علمًا أنَّ ترتيبهما توقيفي.

فوائد معرفة علم المناسبات:

كان الإمام أبو بكر النِّيسابوري المتوفى سنة 324هـ ـــ وهو أوَّل من ألَّف في هذا العلم ـــ إذا قُرِئت عليه آية من القرآن الكريم يقول: لم جُعِلت هذه الآية جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السُّورة إلى جنب هذه [2]، لأنَّه أدرك أنَّ ترتيب القرآن لم يكن على سبيل الصُّدفة؛ بل هو مرتَّب الأحرف، والكلمات، والجُمل، والآيات في المصحف كترتيب النُّجوم في السَّماء ما ترى فيها من تفاوت، ومن جملة فوائده:

أ- فائدة معرفة المناسبة جَعْل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيَقْوى بذلك الارتباط، ويصير التَّأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم.

[1] ـ مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ط4، دار القلم، سوريا، 2005م، ص58.

[2] ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص36.

ب- إدراك عظمة القرآن وأسراه المكنونة فهو تنزيل ممَّن خلق الأرض والسَّماوات العلى، فحشاه أن يكون كلام ربِّنا اعتباطا، أو خِلْوًا من وجود حِكَمٍ في ترتيبه ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1].

ج- إدراك أنَّ أكثر لطائف القرآن وأسراره كامنة تحت الرَّوابط والتَّرتيب فهو: ﴿قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١﴾ [الجن:1]، فترتيبه عجيب، فعلى سبيل المثال: لماذا جاءت آيات الجهاد في خضم آيات الحج في سورة البقرة؟ ولماذا جاء الأمر بالمحافظة على الصَّلوات بين آيات العدَّة في سورة البقرة...

د- إنَّ معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التَّأويل، ودقَّة الفهم، ومن هنا فإنَّ بعض العلماء قد وظَّفوا هذا العلم في تفسيرهم، ومنهم من أفرده في تأليف مستقلٍّ ومن بين هؤلاء الإمام البقاعي في تفسيره: "نظم الدُّرر في تناسب الآي والسُّور"، والإمام السُّيوطي في كتابه: "تناسق الدُّرر وتناسب السُّور، وعبد الله الغماري في كتابه: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، وكثير من المفسِّرين الذين راعوا علم المناسبات في تفاسيرهم كالزَّمخشري، والرَّازي، والبيضاوي، وأبو السُّعود، وأبو حيَّان الأندلسي، ومحمد رشيد رضا، وسيِّد قطب...

أهمِّية علم المناسبات:

تكمن أهمِّية هذا العلم في كونه يبحث في مسألة ترتيب القرآن، وهي مسألة ليست باليسيرة، وهي تدور حول معرفة موضوعات السُّوَر ونظم القرآن، لأنَّ القاعدة تقول: إذا أردت أن تعرف المناسبة بين آيات السُّورة الواحدة؛ فتعرَّف أوَّلا على الغرض الذي من أجله سيقت السُّورة، والمقدِّمات الموصلة إليه قربًا وبعدًا، واللَّوازم في جزئيات تلك المقدِّمات التي تنتقل بالسَّامع من حالة إلى حالة..

وهذا العلم في غاية الدِّقة والرَّوعة، ولا يمكن الوصول إليه إلا بالإحاطة الشَّاملة للسُّورة من داخلها، ومن خارجها بالنَّظر إلى ما قبلها وما بعدها، إذ لا يمكن أن نجتزئ الكلام، أو نسلخه عمَّا بعده وقبله، وهذه أمور مطلوبة في التَّفسير.

ومن هنا فإنِّي أنقل بعضًا من نصوص العلماء الذين بيَّنوا أهمِّية هذا العلم المبنِّ على الاجتهاد وبُعدِ النَّظر من دون تكلُّف وتعسُّف، فمن هؤلاء:

ـــ الإمام الرازي حيث قال: "فَمَا أَحْسَنَ هَذَا التَّرْتِيبَ، لِأَنَّ أَكْثَرَ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرَّوَابِطِ"(1).

ـــ الإمام أبو بكر بن العربي إذ يقول: "ارْتِبَاطُ آيِ الْقُرْآنِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تَكُونَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مُتَّسِقَةَ الْمَعَانِي مُنْتَظِمَةَ الْمَبَانِي عِلْمٌ عَظِيمٌ"(2).

ـــ الإمام الزركشي ويقول: "وَالَّذِي يَنْبَغِي فِي كُلِّ آيَةٍ أَنْ يُبْحَثَ أَوَّلَ كُلِّ شَيْءٍ عَنْ كَوْنِهَا مُكَمِّلَةً لِمَا قَبْلَهَا أَوْ مُسْتَقِلَّةً، ثُمَّ الْمُسْتَقِلَّةُ مَا وَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا؟ فَفِي ذَلِكَ عِلْمٌ جَمٌّ وَهَكَذَا فِي السُّوَرِ يُطْلَبُ وَجْهُ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلَهَا وَمَا سِيقَتْ لَهُ"(3).

أمثلة عن علم المناسبات:

إذا أمعنت النَّظر في افتتاح كلِّ سورة وجدتها في غاية المناسبة لما ختمت به السُّورة قبلها، فيخفى أحيانًا ويظهر أخرى، فافتتاح سورة فاطر بـــ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 1]، مناسب لختام ما قبلها من قوله ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ﴾ [سبأ: 54]، وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]، وكافتتاح سورة البقرة بقوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2]، إشارة إلى "الصراط" في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، كأنَّهم لَمَّا سألوا الهداية إلى الصِّراط المستقيم قيل لهم ذلك الصِّراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا معنى حَسَن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة، ومن لطائف سورة الكوثر أنَّها كالمقابلة للتي قبلها لأنَّ السَّابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة: البُخل، وترك الصَّلاة، والرِّياء فيها، ومنع الزَّكاة، فذكر هنا في مقابلة البخل ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، أي: الكثير، وفي مقابلة ترك الصَّلاة ﴿فَصَلِّ﴾ أي: دم عليها، وفي مقابلة الرِّياء ﴿لِرَبِّكَ﴾ أي: لرضاه لا للنَّاس، وفي مقابلة منع الماعون ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ وأراد به التَّصدق بلحم الأضاحي(4).

---

1 ـ الرازي، التفسير الكبير، مصدر سابق، ج10، ص110.

2 ـ نقلا عن الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص36.

3 ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص 37.

4 ـ ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص ص: 38 ـ 39.

المبحث الثاني عشر: مقدِّمات في التَّفسير.

يعدُّ التَّفسير من أجلِّ علوم الشَّريعة وأرْفَعِها قدرًا، وهو أشرف العلوم موضوعًا وغرضًا وحاجة إليه؛ لأنَّ موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كلِّ حكمة، كما أنَّه الكاشف لمعاني القرآن الكريم.

فمن هذا المنطلق فقد اهتمَّت الأمَّة الإسلامية عبر العصور بتفسير كلام الله ﷻ، وتنوَّعت مناهجها واتِّجاهاتها، وفي هذا البحث سنقف على تبيان أهمِّ القضايا المتعلِّقة بالتَّفسير من حيث مفهومه، ونشأته، وتطوُّره، وألوانه، واتِّجاهاته، كما سنبيِّن الشُّروط والضَّوابط التي ينبغي مراعاتها لمن يُقدم على تفسير كتاب الله ﷻ.

تعريف التفسير:

التَّفسير في اللُّغة: تفعيل من الفَسْر بمعنى الإبانة والكشْف وإظهار المعنى المعقول، يقول ابن منظور: الفَسْرُ البيان فَسَر الشَّيءَ يفسِرُه بالكَسر وتَفْسُرُه بالضَّمِّ فَسْراً، وفَسَّرَهُ أَبانه، والتَّفْسيرُ مثله، والفَسْرُ كشف المُغَطّى والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللَّفظ المُشْكل (1) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33].

التَّفسير في الاصطلاح: عرَّفه الزركشي بقوله: "التَّفسير علمٌ يُعْرف به فهم كتاب الله المنزَّل على نبيِّه محمَّد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه"(2).

نشأة التَّفسير وتطوُّره:

أ- التَّفسير زمن النَّبي ﷺ: نشأ التَّفسير تِبَاعًا لنزول الوحي، فقد كان النَّبي ﷺ تنزل عليه الآية ويفسِّرها لأصحابه، والله ﷻ تكفَّل لرسوله ﷺ بحفظ القرآن وبيانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 19]، فكان النَّبي ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلًا، وهو أوَّل من فسَّره بأقواله وأفعاله، كما كان عليه تبيان أحكامه للنَّاس ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

---

[1] ـ ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص55، مادة: فسر.

[2] ـ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج1، ص13.

ففي زمن النَّبي ﷺ لم تكن الحاجة إلى التَّفسير؛ لأنَّ النَّبي ﷺ بين ظهرانيهم يفسِّر لهم كلُّما يشْكُل عليهم زيادة على ذلك فإنَّ أغلب الذين عاصروا النَّبي ﷺ فهموا القرآن لأنَّه نزل بلُغَتهم، وتحدَّاهم به لأنَّهم كانوا أهل فصاحة وبيان، كما أنَّهم عايشوا الأحداث والوقائع التي كان يسجِّلها القرآن فكان ذلك لهم أدعى للفهم وأيسر.

ب- التَّفسير زمن الصَّحابة: بعد وفاة النَّبي ﷺ اتَّسعت الرُّقعة الإسلاميَّة، ودخل العجم في دين الله أفواجًا فاشتدَّت الحاجة إلى التَّفسير فانبرى لهذه المهمَّة عددٌ كبير من الصَّحابة منهم ابن عباس في مكَّة والذي دعا له النَّبي ﷺ بقوله: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»[1]، وأبيُّ بن كعب في المدينة، وعبد الله بن مسعود في العراق، وغير هؤلاء من الصَّحابة، ولتفرُّغهم للتَّعليم والتَّفسير أصبح لهم تلاميذ من التَّابعين مثل: الإمام مجاهد الذي لازم ابن عباس وأخذ عنه.

وممَّا يلاحظ على التَّفسير زمن الصَّحابة أنَّه:

1) ـــ لم يكن هناك تفاوتٌ كبير في منهجيَّة التَّفسير بين هذه المدارس.

2) ـــ مصادر التَّفسير عند الصَّحابة هي: الكتاب، والسُّنَّة، واللُّغة، والاجتهاد.

3) ـــ تميَّزت مدرسة العراق ببداية التَّوسع في الرَّأي، وذلك لبعدها عن الحجاز الذي هو معقل للصَّحابة.

ج- التَّفسير زمن التَّابعين: اتَّسعت حركة التَّفسير في عصر التَّابعين تبعًا لتوسُّع الدَّولة الإسلامية، وازدادت حاجة النَّاس إلى فهم آيات القرآن الكريم، وخاصَّة بعد أن دخلت أمم في دين الله وهي تحمل ثقافات ولغات متعدِّدة، فنشأ في الأمصار الإسلامية جماعة من العلماء اشتغلوا بتفسير القرآن، معتمدين في ذلك على ما تلقَّوه من الصَّحابة.

وقد اشتهرت ثلاثة مراكز علميَّة في زمن التَّابعين وازدهر فيها التَّفسير وهي: مدرسة مكة، والمدينة، والكوفة، ففي مكَّة لوحدها أخذ عن ابن عباس جملة من كبار

---

[1] ـ محمد بن حبان بن البُستي، صحيح ابن حبان، حققه شعيب الأرناؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، كتاب إِخْبَارِهِ ﷺ عَنْ مَنَاقِبِ الصَّحَابَةِ، ج15، ص531، رقم الحديث: 7055.

علماء التَّابعين منهم: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي (ت 104 هـ)، وعطاء بن أبي رباح (ت 115 هـ)، وطاوس بن كيسان اليماني (ت 106 هـ)، وأبو الشَّعثاء جابر بن زيد البصري (ت 103 هـ)، وسعيد بن جبير الكوفي (ت 95 هـ)... [1].

وقد تميَّز التَّفسير في هذه المرحلة بما يأتي:

1) ـــ ظلَّ التَّفسير في هذه المرحلة محتفظًا بطابع التَّلقِّي والرِّواية كالتي سبقتها؛ إلاَّ أنَّ هذه المرحلة تسرَّبت فيها مرويات من أسلم من أهل الكتاب وتوسَّعوا في الأخذ بها، وهو ما يسمى بالإسرائيليات كالذي يُروى عن عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبِّه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

2) ـــ التَّباين في مدارس التَّفسير وظهور الاختلاف فيها.

3) ـــ ظهور التَّفسير بالرأي كما هو في بعض تفسيرات مجاهد.

د- التَّفسير في عصور التَّدوين: بدأ التَّدوين في أواخر عهد بني أميَّة، وأوائل عهد العبَّاسيِّين، وحظي الحديث بالنَّصيب الأوَّل في ذلك، وشمل تدوين الحديث أبوابًا متنوِّعة، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب لكونه معتمدا على الرِّواية كالذي نجده عند الإمام البخاري حيث أفرد كتابًا في صحيحه سمَّاه بكتاب التَّفسير حيث جمع فيه المرويات وأسباب نزول الآيات والسُّور، وبعد ذلك جاء التَّفسير بشكلٍ مستقلٍّ فأصبح علمًا قائمًا بنفسه منفصلًا عن الحديث، ففُسِّر القرآن حسب ترتيب المصحف، ولعلَّ من أوائل هؤلاء شيخ المفسِّرين الإمام ابن جرير الطَّبري (ت: 310هـ) في كتابه: جامع البيان عن تأويل آي القرآن.

وبعد ذلك انتقل التَّفسير إلى نوع آخر يجمع بين الرِّوايات والاجتهادات وفق أسس وقواعد محدَّدة، وهو ما يسمَّى بالتَّفسير بالمعقول أو الرأي، فصاروا يوظِّفون ملكة اجتهادهم لأجل استنباط الأحكام والدُّروس والعبر، واكتشاف أسرار القرآن من ترتيبه، وبيانه، ووجوه إعجازه المختلفة ومن هؤلاء في مجال البيان والبلاغة الإمام الزمخشري في

[1] - ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص ص: 240 - 242.

تفسيره الكشَّاف، أما في مجال العقل والمنطق الإمام الرَّازي في تفسيره مفاتيح الغيب، وفي مجال استنباط الأحكام الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن...

ثمَّ تقدَّم التَّفسير فظهرت أنماط جديدة فيه حيث عُني بعض المفسِّرين بتلبية حاجات عصرهم، وتناولوا في تفسيرهم الكشف عما تضمَّنه القرآن الكريم من أسس الحياة الاجتماعية، ومبادئ التَّشريع، ونظريات العلوم، كتفسير الجواهر، وتفسير المنار، أو الجانب التنظيمي والحركي كتفسير الظلال.

ثمَّ تطوَّر التَّفسير إلى ما نسمِّيه حاليًا بعصر التَّخصُّص الدَّقيق، حيث ظهر ما يسمَّى بالتَّفسير الموضوعي والذي يتطرَّق لموضوع معيَّن فيتناوله الباحث من جميع جوانبه وجهاته على وفق ما جاء في القرآن الكريم [1].

ألوان التفسير ما لها وما عليها:

أوَّلا: التَّفسير بالمأثور (بالرِّواية).

التفسير بالمأثور هو: التَّفسير المنقول عن الرَّسول ﷺ، أو الصَّحابة، أو التَّابعين لبيان مراد الله تعالى من كلامه، فهو إذًا جزء من علم رواية الحديث سواء كان مرفوعًا إلى النَّبي ﷺ، أو موقوفًا على الصَّحابي، أو مقطوعًا على التَّابعي، ويشترط فيه ما يشترط في علم الحديث من ضوابط النَّقل وشروط الصِّحَّة [2].

مآخذه: يؤخذ على التَّفسير بالمأثور جملة من المآخذ لأجلها ضعفت الثِّقة به ومن أهمِّها:

أ- كثرة الوضع في التَّفسير: والوضع هو الدَّسُّ والكذب، وكان من أهمِّ أسباب نشوئه الخلاف السياسي الذي وقع عام: 41هـ، فظهر التَّعصُّب المذهبي، والكيد للإسلام، والتَّزلُّف للحكَّام، والتَّرويج للسِّلع، واختلاق القصص والأخبار... وأثَّر الوضع بأن ضاع كثير من هذا التُّراث الذي خلَّفه لنا السَّلف؛ إذ أصبح محاطًا بكثير من

---

[1] - ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 351 - 353. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم القرآن العزيز، مصدر سابق، ص 207.

[2] - ينظر: عبد الجواد خلف، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، مرجع سابق، ص110.

الشُّكوك، فأفقده الثِّقة ممَّا جعل أهل العلم يردُّون كلَّ رواية تطرَّق إليها شيء من هذا القبيل.

ب- الإسرائيليات: وهي روايات من أسلم من أهل الكتاب الذين أخذوها من الثَّقافة اليهودية والنصرانية، والتي تتعارض مع ديننا الحنيف، وميدانها الرَّئيس هو القصص والعقائد.

فبعض المفسِّرين يأخذ بها استنادًا منهم لحديث النَّبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

ويسامحني هؤلاء لعدم فهمهم الحديث في سياقه الذي وُضِع له، فالحديث سيق في معرض الذَّمِّ والوعيد، فأمَّا الذَّمُّ فقد صرَّح النَّبي ﷺ بأن نحدِّث عن أفعال بني إسرائيل كما أخبر بذلك المولى ﷻ عنهم في القرآن ولا حرج لنا في ذلك عن هذا التَّحديث، فقد وصفوا بأنَّ الله فقير، ويده مغلولة، وأنهم أساؤوا للأنبياء وقتلوهم، كما حرَّفوا كتبهم واشتروا بها ثمنا قليلا...فحدِّث عن هؤلاء عن صفاتهم الذَّميمة والدنيئة ولا حرج في ذلك، وبعدها توعَّد النَّبي ﷺ من يأخذ بها وينسبها إليه بأن يَحْجز مقعده من النَّار.

إذن فالأصل أن نضرب صفحًا عن جميع هذه الرِّوايات الإسرائيليَّة؛ لأنَّ في القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة غُنية عنها، كما أنَّهما حازا الكمال والتَّمام ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]، والكفاية عن كلِّ شيء: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 51].

والإسرائيليات تُعنى بتوضيح مبهمات القرآن من أماكن وأشخاص، كما تبحث في تفاصيل ودقائق الأمور التي سكت عنها القرآن، علاوة على ذلك كلِّه ما تنسبه من إساءات وما تحكيه من خرافات وأساطير تمسُّ من مقام الأنبياء المكرمين[2].

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، مصدر سابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج4، ص170، رقم الحديث: 3461.

[2] ـ ارجع إلى التفاسير بالمأثور عند تناولها مثلا لتفسير قوله تعالى: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، أو قوله تعالى: وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب. أو قوله تعالى: وكشفت عن ساقيها...

ومن هنا فإنَّ أثرها سلبي أدَّى بها إلى زعزعة الثِّقة بالتَّفسير بالمأثور، فلا قيمة لها في شرعنا الحنيف؛ لأنَّه لا يُبنى عليها حكم في الدِّين، ولا ينقص منه.

ج- حذف الإسناد (سلسلة الرُّواة الموصلة إلى المتن): لقد كان الصَّحابة والتَّابعون لا يروُون إلاَّ بالإسناد إلى أن جاء عصر ما بعد التَّابعين فاختصروا الأسانيد لِطُولها، وأهملوا عزو الأقوال لقائليها و لم يتحرَّوْا الصِّحَّة فاختلط الصَّحيح بالضَّعيف.

ومن أهمُّ المصنَّفات في التَّفسير بالمأثور هي:

1) جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.

2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير.

3) لباب التأويل في معاني التتريل للخازن.

4) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي [1].

ثانيا: التَّفسير بالرَّأي (بالمعقول).

هو تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بَعْد معرفة المفسّر لكلام العرب، ومعرفة الألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ومعرفة علوم القرآن من أسباب النُّزول، والمكِّي والمدني، وعلم المناسبات...

موقف العلماء من التَّفسير بالرَّأي:

أوَّلا: موقف المانعين: واحتجوا بعدَّة أدلَّة منها:

1. ــ أنَّ التَّفسير بالرَّأي تقوُّلٌ على الله بغير علم، وقد حرَّمه الله في كتابه، وقرنه مع الشِّرك وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 33].

لكنَّ المجيزين ردُّوا بأنَّ التَّفسير المقصود في الآية هو ما كان عن هوى، أمَّا إذا كان عن علمٍ ودرايةٍ فالآية لا تشمله.

2. ــ نهى النَّبي ﷺ القول بالرَّأي في القرآن الكريم كقوله عليه السلام: «مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(1).

---

[1] - ينظر: عتر نور الدين، علوم القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ص: 74 - 77.

وردُّوا عليهم بأنَّ الوعيد في الحديث يشمل أصحاب الرَّأي المذموم الذين لم يبنوا آراءهم على قواعد وضوابط سليمة.

3. ــــ نسب الله ﷻ بيان القرآن للنَّبي ﷺ لا لغيره وذلك في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: 44].

وردَّ المجيزون بأنَّ النَّبي ﷺ لم يفسِّر لأصحابه إلاَّ ما احتاجوا إليه، وبعد وفاته ﷺ استجدَّت أمور أُحتيج فيها إلى الاجتهاد، زيادة على ذلك أنَّ فاصلة الآية تحثُّ على إعمال الفكر في القرآن.

ثانيا: موقف المجيزين: أجاز العلماء هذا النَّوع من التَّفسير بالشُّروط والضَّوابط التي سنذكرها لاحقًا بأدلَّة كثيرة منها:

1. ــــ ما جاء في الأمر بتدبر القرآن الكريم، والتَّدبُّر قائم أساسًا على الاجتهاد، يقول تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩ ﴾ [ص: 29]، وغيرها من الآيات التي تدعو إلى تدبُّر القرآن.
2. ــــ دعاء الرَّسول ﷺ لابن عباس بقوله: "اللَّهم فقِّهه في الدِّين وعلمِّه التَّأويل" (2)، ولو كان التَّفسير مقصورًا على النَّقل ولا يجوز الاجتهاد فيه لَمَا كان لابن عباس مزيَّة على غيره.
3. ــــ أنَّ الصَّحابة ﷺ اجتهدوا ونُقل عنهم الاختلاف فيما بينهم.
4. ــــ لو كان التَّفسير بالرَّأي غير جائز لكان الاجتهاد أيضًا غير جائز (3).

وبهذا يظهر أنَّ التَّفسير بالرَّأي المحمود جائز، والله أعلم.

[1] ـ النسائي، السنن الكبرى، مصدر سابق، كتاب فضائل القرآن، بَابٌ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ج7، ص286، رقم الحديث: 8031.

[2] ـ سبق تخريجه.

[3] ـ ينظر: فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، مرجع سابق، ص ص: 160 ـ 161.

ثالثا: التَّفسير الموضوعي.

التَّفسير الموضوعي يُعْنى بتتبُّع موضوع معيَّن من خلال القرآن الكريم، وقد عني المعاصرون بالتَّفسير الموضوعي، نظرا لملاءمته للواقع، وتلبيته لحاجيات العصر، وإيجاده للحلول المستجدَّة من القضايا الحديثة، وهو على ثلاثة طرق:

1. ــــ دراسة موضوع مَّا من جميع جوانبه كما تطرَّق إليه القرآن: حيث تجمع الآيات المتعلِّقة بذلك الموضوع المراد دراسته كالمرأة في القرآن الكريم، أو اليهود في القرآن ثمَّ ترتَّب وتصنَّف على حسب الجوانب التي تعرَّض إليها القرآن، لِيَخْلُصَ الباحث في الأخير إلى دراسة كاملة حول ذلك الموضوع من زاوية القرآن، مبيِّنًا في ذلك مفهومه، وأسبابه وأنواعه ومسائله وفروعه في دراسة جامعة.
2. ــــ النَّظر إلى السُّورة القرآنية كلِّها كوحدة موضوعية واحدة: فيبحث المفسِّر عن رابطٍ أو محورٍ تدور حوله موضوعات السُّورة رغم تنوُّعها، فمثلا الوحدة الموضوعية في سورة البقرة ترتكز على الإيمان بالغيب؛ وبالأخصِّ قضية البعث حيث نجد أنَّ جميع القصص المذكورة فيها ترتكز حول ذلك الموضوع، أمَّا السُّوَر القصيرة فلا عناء في بيان موضوعها الرَّئيسي؛ لأنَّها تتحدَّث في الأغلب عن موضوع واحد، ومن الذين اعتنوا ببيان هذا النَّوع في تفاسيرهم سيِّد قطب في ظلال القرآن.
3. ــــ دراسة مفردة مَّا من خلال القرآن كلِّه: وهذا النَّمط أدقُّ من سابِقَيْه؛ إذ يتعلَّق بالكلمة وحدها من حيث ورودها في القرآن، ومعرفة السِّياق الذي وردت فيه، والسَّبب في اختيار تلك المفردة في ذلك الموضع بالضَّبط دون غيرها من المفردات وهكذا...

ولا شكَّ أنَّ الدِّراسات الموضوعية تخدم المسلم خدمة مباشرة في معرفة الدراسة القرآنية حول موضوع ما، فتُيسِّر له الإحاطة بالموضوع من جميع جوانبه [(1)].

أهمُّ الشُّروط والضَّوابط التي ينبغي على المفسِّر مراعاتها في تفسيره:

---

[1] ـ ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مرجع سابق، ص215.

ينبغي ألاَّ يتصدَّى للتَّفسير من لم يُحط بمجمل الشُّروط التي حدَّدها العلماء والتي بها يُبيَّن المراد من كلام الله تعالى وأهمُّها:

1. ــ التَّجرُّد عن الهوى وعن الأفكار المسبقة: فلا بدَّ لمن يُقدم على التَّفسير أن لاَّ يَحمل في عقله مفاهيم مُسبقة، وأحكام مذهبية معتمدة؛ بل يترك القرآن هو الذي يحكم ويفنِّد ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، لأنَّ المنحرف في العقيدة والمنهج يسعى إلى ليِّ أعناق الآيات، ويتكلَّف في تفسيرها لتتناسب مع أهوائه وأفكاره المُسبقة، وعليه فلا بدَّ أن يُقبل على القرآن متعلِّما لا معلِّما له.
2. ــ أن يبدأ أولًا بتفسير القرآن بالقرآن، فما أُجْمل منه في موضع فإنَّه قد فُصِّل في موضع آخر، وما اختُصر منه في مكان فإنَّه قد بُسط في مكان آخر.
3. ــ أن يطلب التَّفسير من السُّنَّة فإنَّها شارحة للقرآن موضِّحة له.
4. ــ أن يكون المفسِّر عالما بأصول التَّفسير: وذلك أنَّ أصول التَّفسير بمثابة مفاتيح لعلم التَّفسير، فلا بدَّ للمفسِّر أن يكون عالمًا بالقراءات، وأسباب النُّزول، وعلم المناسبات ونحوها.
5. ــ أن يكون عالمًا باللُّغة وعلومها: كالنَّحو والصَّرف والاشتقاق، والبلاغة بأقسامها الثلاثة "المعاني والبيان والبديع"؛ ذلكم أنَّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيٍّ مبين، وهذه العلوم ممَّا يتوصَّل بها إلى معرفة المعنى، وخواصِّ التَّركيب، ووجوه الإعجاز فيه.
6. ــ العلم بأصول العلوم المتَّصلة بالقرآن، كعلم أصول الفقه، وأصول التَّفسير، وأصول التوحيد، ومعرفة أحداث السيرة....
7. ــ دقَّة الفهم التي تمكِّن المفسِّر من ترجيح معنى على آخر، أو استنباط معنى يتَّفق مع نصوص الشَّريعة.
8. ــ لا بدَّ للمفسِّر أن ينظر إلى القرآن كوحدة متكاملة فلا يجزِّئ فهمه، أو يجعله عضين، فلا يفسِّر آية يَخرج بها عن كلِّيات القرآن أو تتعارض مع غيرها.
9. ــ كما عليه أن يتخلَّق بأخلاق القرآن، وأن يكون سمْتُه حسنًا، ونيَّته صادقة، وأن يكون وَرِعًا تقيًّا وقَّافا عند حدود الله، جاهرًا بالحق، متحرِّيا بالصِّدق، متواضعًا أمام الحقِّ.

المبحث الثالث عشر: القصص القرآني.

تعتبر القصَّة ظاهرة قرآنية ذلك أنَّها شَمِلت ثُلث القرآن، ولذا تستحق أن يُوقف عندها لبيان أهمِّيتها، وأغراضها، ومقاصدها التي سيقت من أجلها، كما نهدف إلى بيان ضوابط التَّعامل مع القصَّة القرآنية.

تعريف القصَّة:

معنى القصص لغة: من قَصَّ أَثَرَهُ، يَقُصُّه قَصّاً وقَصِيصاً، وقَصَصاً، أي: تَتَبَّعَهُ، وفي التَّهْذيب: القَصُّ: اتِّباعُ الأَثَر. ويُقَالُ: خَرَجَ فُلانٌ قَصَصاً في أَثَرِ فُلانٍ وقَصّاً، وذلكَ إِذا اقْتَصَّ أَثَرَهُ [1]، ويقال: "قَصَصْت الشَّيء إذا تتبّعْت أَثره شيئاً بعد شيء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ [القصص: 11]، أي: اتِّبعي أَثَرَه"[2].

أمَّا القصص اصطلاحا: فهو ما حكاه القرآن الكريم لنا بصورة صادقة عن أحوال الأمم الماضية، والنُّبوات السَّابقة، والحوادث الواقعة، وهي على ثلاثة أنواع:

1. ـــ قصص للأنبياء: وقد ذكر الله ﷻ جانبًا كبيرًا من دعوتهم إلى أقوامهم، والمعجزات التي أيَّدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدَّعوة وتطوُّرها، وبيان عاقبة كلٍّ من المؤمنين والمكذبين. وقد ذُكِر في القرآن قصص خمسة وعشرين نبيًّا فمنها المفصَّل في قصَّته كموسى ويوسف ومنها المجمل كقصَّة أيوب وزكرياء، ومنهم من ذكرت قصَّته في موضع واحد كقصَّة يوسف، ومنهم من تكرَّر ذكرها مرارًا كقصَّة نوح، وإبراهيم، وموسى، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم أفضل الصَّلاة والتَّسليم.
2. ـــ قصص لغير الأنبياء سواء كانوا أفرادًا أو أُممًا صالحين أو طالحين: فمن الصَّالحين قصَّة أصحاب الكهف، وذي القرنين، ومريم، وأصحاب الأخدود... وقصص لطالحين كقصَّة قارون، وأصحاب السَّبت، وصاحب الجنتين، وأصحاب الفيل وغيرهم.

---

[1] ـ ينظر: الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مصدر سابق، ج18، ص 98.

[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص73.

3. ـــ قصص تتعلَّق بذكر حوادث تتعلَّق بسيرة النَّبي ﷺ سواء كانت حوادث فردية كقصَّة عبس، والمجادلة، والإسراء، والهجرة، أو حوادث جماعية كحادثة الإفك، وغزوة بدر، وأحد، وحنين، وتبوك، والأحزاب، ونحو ذلك (1).

أهمِّية القصص القرآني وفوائده:

لقد أخذت القصَّة في القرآن حجمها الكبير ومساحتها الواسعة نظرا للفوائد التي تزخر بها فمنها:

1) ـــ تُشْعِر القصَّة القرآنية بوحدة الشَّرائع السماوية التي بعث الله بها أنبياءه ورسله ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]، كما تؤكِّد اطِّراد السُّنن الإلهية الجارية على جميع الأمم من هداية، أو هلاك، أو نَصْرٍ، أو خذلان... ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62].

2) ـــ الاعتبار بمن سبقنا من الأمم الماضية، وأخذ الدُّروس والعبر منهم في أكثر من جانب، ليختار المؤمن ما يصلح له من هذه النَّماذج في أمور دينه ودنياه وأخراه ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: 111].

3) ـــ تثبيت قلب النَّبي ﷺ وقلوب الدُّعاة إلى دين الله تعالى، وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحقِّ وجنده، وخذلان الباطل وأهله، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: 120].

4) ـــ القصَّة هي أسلوب مثالي لترسيخ العقيدة والأخلاق الحميدة، والتَّشبُّث بالسِّير على خطى الأنبياء والصالحين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90].

5) ـــ تعتبر القصَّة القرآنية لدليل قاطع على ربَّانيتها نظرًا لما اشتملت عليه من إعجاز غيبي تحكي لنا أخبارًا صادقة، وتفصيلات دقيقة ما كان للنَّبي ﷺ أن يعلمها لولا

---

[1] ـ ينظر: مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 315 ـ 317. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مصدر سابق، ص ص: 231 ـ 232.

أنَّ الوحي الإلهي أطْلَعه عليها ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٤٩﴾ [هود: 49].

خصائص القصَّة القرآنية:

للقصَّة القرآنية خصائص تميِّزها عن غيرها من القصص الأدبي والخيالي، ويمكن تقسيمها إلى:

أوَّلاً: خصائص ذاتية:

1. ــ القصَّة القرآنية مصدرها الوحي، وهي من عند الله قطعًا فلا مجال فيها للشَّكِّ، والرِّيبة، والاختلاق، والتَّكهُّن، والخرافة...، فكلُّ ما جاء في القرآن من قصص عن الغيب الماضي لَيعدُّ من قبيل الإعجاز القرآني الغيبي لاندثار علمه لدى النَّاس ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62].
2. ــ القصَّة القرآنية قصة هادفة، سِيقَت لأجل ترسيخ أصول الإيمان، ومكارم الأخلاق.
3. ــ القصَّة القرآنية تستقي أحداثها من الكون والتَّاريخ.
4. ــ المستهدف في القصَّة القرآنية هو الإنسان فهو المقصود الرَّئيس من سوق القصَّة وأحداثها.

ثانيا: خصائص فنِّية:

1. ــ تنوُّع طريقة العرض: أحيانا يُذكر ملخَّصًا للقصَّة يسبقها، ثمَّ يعرض التَّفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها، وذلك كطريقة قصَّة "أهل الكهف"، وأحيانًا تُذكر عاقبة القصَّة ومغزاها ثمَّ تبدأ القصَّة بعد ذلك من أوَّلها وتسير بتفصيل خطواتها، وذلك كقصَّة موسى في سورة القصص، ومرَّة تذكر القصَّة مباشرة بلا مقدِّمة ولا تلخيص، ويكون في مفاجآتها الخاصَّة ما يغني مثل قصَّة مريم عند مولد عيسى.
2. ــ تنوُّع طريقة المفاجأة: فمرَّة يُكتم سرُّ المفاجأة عن البطل وعن النَّظَارة، حتَّى يكشف لهم معًا في آن واحد، ومثال ذلك قصة موسى مع العبد الصَّالح العالم في سورة الكهف، ومرَّة يُكشف السرُّ للنَّظارة، ويترك أبطال القصَّة عنه في عماية كقصَّة أصحاب الجنَّة.

3. ـــ وجود فجوات في القصَّة القرآنية: وهي تلك الفجوات بين المشهد والمشهد، التي يتركها تقسيم المشاهد و"قصُّ" المناظر، ممَّا يؤدِّيه في المسرح الحديث إنزال السِّتار، وفي السينما الحديثة انتقال الحلقة؛ بحيث تترك بين كلِّ مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السَّابق والمشهد اللاَّحق، وهذه طريقة متَّبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب، ومثاله في قصَّة يوسف عليه السلام عندما طلب ساقي الملك من الملك أن يُرسله إلى يوسف عليه السلام وهو في السِّجن لينبِّئهم بتأويل الرُّؤيا، فمباشرة انتقل المشهد من القصر إلى السِّجن تاركا وراءه فجوات عديدة ليتخيَّلها القارئ.

4. ـــ قوَّة التَّصوير الفنِّي: إنَّ هذا التَّصوير في مشاهد القصَّة ألوان: لونٌ يبدو في قوَّة العرض والإِحْياء، ولون يبدو في تَخْيِيل العواطف والانفعالات، ولونٌ يبدو في رسم الشَّخصيات، وليست هذه الألوان منفصلة، فمثلا مشهد إبراهيم وإسماعيل وهما يبنيان الكعبة، ومشهد نوح وابنه في الطُّوفان، ومشهد أصحاب الكهف وهم في حال نومهم وبعد يقظتهم..[1].

ضوابط في التَّعامل مع القصَّة القرآنية:

القصَّة القرآنية هي نصٌّ قرآني له مميِّزاته وخصائصه، فلا يحقُّ لأحدٍ أن يتعامل مع هذا النَّصِّ إلا بمبدأ القدسيَّة والتَّسليم، كما يتحتَّم الالتزام بضوابط في التَّعامل مع القصَّة حتَّى لا تُفقده رَونقه وجَماله والهدفُ الذي من أَجله سِيقَت، وفيما يأتي بعضٌ منها:

1) ـــ الإعراض صفحًا عن الإسرائيليات: القرآن الكريم إزاء عرضه للقصَّة سلك في ذلك مسلك الإيجاز والاختصار وصولاً إلى العظات والحكم، دون أن يُولِي للأسماء والأزمنة والبقاع أيَّ اهتمام إلاَّ ما ذكره منها تحقيقًا لمقصد وغاية مرادة.

لكنَّ الرِّوايات الإسرائيلية تطرَّقت إلى تفصيلات بعيدة كلَّ البعد عن موطن العبرة والعظة، وذلك بتحديد الأزمنة والأمكنة، وتبيين ما أبهمه القرآن من أسماء لشخوص القصص.

[1] ـ ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة، ص ص: 180 ـ 190.

ومن هنا فلا بدَّ أن نعرض عنها، ونسكت عما سكت عنه القرآن ولا نزيد عن ذلك قيد أنملة؛ لأنَّه لو كان في ذكرها فائدة ترتجى لذكرها الله في كتابه.

2) ـــ عدم القول بالتِّكرار في القصَّة القرآنية: والتِّكرار هو: "إعادة اللَّفظ نفسه في سياق واحد ولمعنى واحد"[1]، كما أنَّ التِّكرار شيء معيب لا يجوز وصف كلام البشر به فضلا عن القرآن الكريم، فأيُّ قصَّة في القرآن لم تكرَّر في موضعين أو أكثر على نمط واحد قط، وكلُّ صورة ترد عليها القصَّة المكرَّرة لا بدَّ أن تحمل جديدًا في الصِّياغة والمعنى لم يرد في غيرها، وكلُّ نمط من أنماط التِّكرار مناسب للمقام الذي ورد فيه [2].

3) ـــ لا بدَّ في القصَّة الواحدة والتي وردت في مواطن متعدِّدة أن نجمع كلَّ الآيات المتحدِّثة عنها لتكتمل لنا القصَّة من جميع جوانبها وجهاتها، وذلك على طريقة التَّفسير الموضوعي، لأنَّ القصَّة القرآنية المتحدِّثة عن موضوع معيَّن غالبًا ما تَرِد في أماكن عدَّة، فلأجل الإحاطة بها لا بدَّ أن تتمَّ عمليَّة مسح شامل للقرآن عن كلِّ ما ورد بشأن تلك القصَّة، فقد يكون هناك مبهم قد وضِّح في مكان آخر، أو مقيَّدٌ أُطلق في موضع آخر وهكذا.

4) ـــ لا بدَّ من الانتباه لأساليب القرآن المتنوِّعة في العرض ومنها القصَّة، فهناك أسلوب الحذف، وأسلوب الإيجاز، وأسلوب التَّقديم والتَّأخير...

[1] ـ فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، دار الفرقان، عمّان، 2000م، ص63.

[2] ـ ينظر: مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2002م، ص: 462.

المبحث الرابع عشر: الإعجاز في القرآن الكريم.

ما من نبيٍّ يرسله الله ﷻ إلى أمَّته إلَّا ويؤيِّده بمعجزة خارقة تكون برهانًا قاطعًا، وحجَّة ساطعة على صدق ما يبلِّغه عن ربِّه ﷻ، وغالبًا ما تكون معجزة ذلك النَّبي من جنس ما يشتهر به قومه، ليتحدَّاهم وليعجزهم حتَّى يتيقَّنوا أنَّ مصدر ما يقوله لهم ذلك النَّبي، ومصدر تلك المعجزة هما قطعًا من عند الله ﷻ.

تعريف المعجزة:

المعجزة لغة: أصل مادَّة معجزة من العجز، يقول الأصفهاني: "عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ، وبه شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِهِ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأَخُّرُ عن الشَّيء، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مؤخِّره، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعل الشَّيء، وهو ضدّ القدرة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ﴾ [المائدة: 31]، وأَعْجَزْتُ فلاناً وعَجَّزْتُهُ وعَاجَزْتُهُ: جعلته عَاجِزاً" (1).

المعجزة اصطلاحا هي: أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرون بالتَّحدِّي، سالِمٌ من المعارضة يُجريه الله على يد نبيٍّ من أنبيائه صدقا لدعواه (2).

فمعجزات الأنبياء ليس المقصود منها تعجيز الخلق؛ ولكن للازمه وهو دلالتها على أنَّهم صادقون فيما يبلِّغون عن الله.

فمن خلال التَّعريف لا بدَّ لتحقُّق المعجزة من شروط هي:

1. ــــ أن تكون من الأمور الخارقة للعادة ليست ممَّا يألفه النَّاس ويعتادونه، كتحوُّل عصى موسى عليه السلام إلى ثعبان يتلقَّف كلَّ ما يأْفِكُه السَّحرة.
2. ــــ أن يكون الأمر الخارق للعادة من الله، وليس من فعل البشر، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 50]، وقال الله على لسان الأنبياء: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 11].

1 ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص547.

2 ـ ينظر: الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص3.

3. ــ سلامتها من المعارضة بالإتيان بمثلها: إذ لو استطاع البشر الإتيان بمثلها لما صلُحت أن تكون علامةً على صدق صاحبها، وحتى تكون علامة على صدق دعوى النَّبيِّ لا بدَّ ألاَّ يقدر البشر كلَّهم؛ بل والجِنُّ معهم على الإتيان بمثلها؛ لأنَّها من قدرة الله وحده، كما قال تعالى عن القرآن ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ۝٣٤﴾ [الطور: 34].

4. ــ ألاَّ تقع المعجزة على خلاف قول النَّبي، فإذا جاءت على خلاف قوله لم تصلح دليلًا على دعواه، ولا دليل على صدقه لمخالفتها لمقتضى كلامه كما حدث لأدعياء النُّبوة.

5. ــ أن تقترن بالتَّحدي عند وقوعها: وذلك لأمرين أوَّلهما: إثبات عجز المخاطبين عن الإتيان بمثلها أو من بعدهم، وثانيهما: إقامة الحجَّة عليهم عند عجزهم [1].

الفرق بين معجزة النبي ﷺ ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السَّلام:

1) ــ معجزات الأنبياء آنية مؤقَّتة تفنى بوفاة ذلك النَّبي، بينما معجزة الرَّسول ﷺ خالدة.

2) ــ معجزات الأنبياء حسِّية بينما معجزة الرَّسول ﷺ عقلية.

3) ــ معجزات الأنبياء مستقلَّة عن رسالتهم، فعصا موسى عليه السلام مستقلَّة عن التَّوراة، ونفس الشيء عند عيسى عليه السلام؛ بينما الرَّسول ﷺ تجتمع الرِّسالة والمعجزة في القرآن الكريم.

مرادفات مصطلح "المعجزة" في القرآن الكريم:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السُّنَّة النَّبوية مصطلح المعجزة، وإنَّما ظهر هذا المصطلح في أواخر القرن الثَّاني الهجري وبداية الثَّالث، لذا نجد أنَّ القرآن الكريم قد استعمل بدل المعجزة ما يأتي [2]:

ــ الآية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْءَايَٰتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام: 109].

[1] ـ ينظر: فهد الرومي، محاضرات في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 260 ـ 261.

[2] ـ ينظر: مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 2005م، ص17.

ـــ البيِّنة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ [الأعراف: 73].

ـــ البرهان: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: 32].

مراحل التَّحدي بالقرآن:

تحدَّى القرآن الكريم النَّاس عامَّة، والعرب بشكلٍ أخصَّ في أكثر من آية على مراحل متعدِّدة منها:

أوَّلا: تحدَّاهم بأن يأتوا بمثل القرآن من غير تعيين: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: 34].

ثانيا: لَمَّا عجزوا عن الإتيان بمثله أرخى لهم القرآن العِنان فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: 13].

ثالثا: فلمَّا أظْهروا عجزهم وعدم استطاعتهم، خفَّف عنهم القرآن أكثر فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: 38].

رابعا: وبلغ التحدِّي أشدَّه في سورة البقرة، حيث طلب من جميع النَّاس أن يأتوا بسورة ولو تُشبه إلى حدٍّ بعيد أقلَّ سورة في القرآن وهي سورة الكوثر في النّظم والتّأليف والإحكام، وفي المعاني والدّلالات والأحكام علمًا أنَّها لا تتضمَّن تشريعًا، ولا قصصًا، ولا تاريخًا، علاوة على ذلك أن يستعينوا بشهدائهم، ومع كلِّ هذه التَّسهيلات فقد سجَّل القرآن عجزهم ذلك على وجه التَّأكيد، والتَّأبيد، والتَّيئيس، مع الإنذار والتَّهديد والوعيد: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23 – 24]، ثم سجَّل الله على الخلق جميعًا عجزهم عن معارضته ليكون ذلك التَّحدي باقيًا ما بقي القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم:

القرآن معجزٌ في ألفاظه وأسلوبه، وفي بيانه ونظمه، وفي تشريعاته وأحكامه الرَّامية لتكوين مجتمع إنسانيٍّ مثاليٍّ واقعيٍّ، كما أنَّه معجز فيما احتواه من علومٍ ومعارف لم يجمعها كتاب قبله ولا بعده، وتحقَّقت باكتشافات العلماء لبعضها في العصور المتأخِّرة كحقائق ثابتة، وفيما يأتي بيان أهمِّ وجوه الإعجاز القرآني:

أولا: الإعجاز البياني: إنَّ أعظم وجوه الإعجاز في القرآن الكريم الإعجاز البياني؛ لأنَّه ينتظم القرآن الكريم كلَّه، سُوَره وآياته على اختلاف طولها وقِصَرها، بخلاف الوجوه الأخرى من وجوه الإعجاز فليس الأمر فيها كذلك، فمثلا الإنباء بالغيب الماضي والمستقبلي ليس موجودا في كلِّ آية من آيات القرآن، ونفس الشَّيء يقال في الوجوه الأخرى كالإعجاز العلمي والتَّشريعي.

فالإعجاز البياني يعد أهم الوجوه وأعمها؛ بل أتمها لأنه عام في القرآن كله لا تخلو منه سورة على قصرها؛ بل هو في كل آية من آياته.

فالقرآن الذي أعجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سَنَن كلامهم ألفاظًا وحروفًا تركيبًا وأسلوبًا، فقد جاء في اتِّساق حروفه وطلاوة عبارته وحلاوة أسلوبه وجرس آياته، وانتقاء كلماته، وترتيبها في الجمل، والجمل في آيات، والآيات في السُّور، ومجموع السُّوَر تشكِّل القرآن الكريم في وحدة موضوعية متماسكة لا تختلف ولا تضطرب.

كما أن القرآن يراعي مقتضيات الحال في ألوان البيان في الجمل الاسمية والفعلية، وفي النَّفي والإثبات، وفي الذِّكر والحذف، وفي التَّعريف والتَّنكير، وفي التَّقديم والتَّأخير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز، وفي العموم والخصوص، وفي الإطلاق والتَّقييد، وفي النَّص والفحوى...

هكذا في كلِّ ما سبق نجد القرآن هو القمَّة التي تعجز أمامها القدرة اللُّغوية لدى البشر أجمعين، وعلماء اللُّغة العربية هم أدرى النَّاس بذلك وهم يعلمون أنَّ قريشًا الذين بلغوا شأوًا بعيدًا في البيان واللُّغة وكانوا يتنافسون فيها في النَّوادي والأسواق كعكاظ،

وذي المحنَّة قد بهرهم أسلوب القرآن وعجزوا عن الإتيان بمثله، فنحن أعْجَز عنهم من باب أولى لبعدنا عن اللِّسان العربي.

ثانيا: الإعجاز الغيبي:

والقرآن الكريم تضمَّن الحديث فيه عن الإنباء بالغيب على أربعة أنواع:

أوّلها: الإخبار عن الغيب المطلق، كالخبر عن الله ﷻ، وأسمائه، وصفاته، والملائكة، والجنِّ واليوم الآخر، وصفة الجنّة والنّار.

وقد أتى القرآن في هذا الأمر بما لا يمكن أن يدركه البشر من تلقاء أنفسهم، إذ لا سبيل لمعرفته من جهة العقول، وإنّما طريقه السّمع، كقوله تعالى عن خلقة الملائكة: ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١** ﴾ [فاطر: 1].

ثانيها: الإخبار عن الأمور السّابقة، كالخبر عن بدء الخلق، وعن الأمم السّالفة.

وقد قصّ علينا القرآن من ذلك عجبًا، وأتى من الأنباء بما لم يملك المنصفون من أهل الكتاب والعلم إلّا تصديقه، كما قال الله ﷻ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١١٤** ﴾ [الأنعام: 114].

فمثال الإخبار عن بدء الخلق قوله تعالى: ﴿ **۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ١١** ﴾ [فصلت: 9 – 11].

ومثال الإخبار عن الأمور الغيبية الماضية والتي تحمل تفاصيل وأرقام دقيقة ما كان للنّبي ﷺ أن يعلمها لولا أنَّ الوحي الإلهي أطلعه عليها، لذلك كثيرا ما نجد هذه العبارات القرآنية ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤** ﴾ [آل عمران: 44]، وقوله: بعد تمام قصة يوسف عليه السلام: ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢** ﴾ [يوسف: 102]، وكذا في أثناء قصة موسى عليه السلام نجد أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ**

ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: 45 – 46]، ومثال هذا البند في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾ [الكهف: 25].

ثالثها: الإخبار عن الأمور الغيبية المستقبلية: كالإخبار عن الشّيء قبل وقوعه في عهد النّبيّ ﷺ، أو عمّا سيكون بعد ذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾ [الروم: 1 – 4]، وكلمة "بضع" تعني من 3 إلى 10 سنوات كقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقد تحقّق وعد الله بأن نصر الله الرُّوم على الفرس بعد سبع سنين ووافق ذلك يوم بدر [1].

رابعها: الإخبار عمّا تكنّه النّفوس وتخفيه الضّمائر، ممّا لا يمكن أن يعلمه إلّا الله، ولا يصل إلى علم النّبيّ ﷺ إلّا بوحي الله ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: 26 – 27].

ومثاله ما نقرأه في سورة التّوبة من ذكر أسرار المنافقين، حتّى خاف النّاس أن يترل القرآن بأسمائهم يُظهر حقائق ما في نفوسهم.

ثالثا: الإعجاز التشريعي:

ويكمن فيما أودع الله في كتابه من القوانين والأنظمة التي تشهد في استقامتها وعدلها وصلاحها لكلّ زمان أنّها من عند الله، وأن لا طاقة للخلق أن يوجِدوا لها نظيرًا مهما بلغت العقول.

ذلك أنّ التّشريع مبنيّ على تحقيق مصالح العباد في الدّارين، ولا يحيط بتلك المصالح أحد من خلق الله؛ لقصور علمهم؛ لكنّ الله سبحانه هو الخالق وهو أعلم بشؤون عباده، وهو الذي يشرِّع الأصلح لهم قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14].

---

[1] - ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق،ج4، ص ص: 249 - 250.

فلذا جاء تشريعه موصوفًا بالحسن المطلق، وبالحقّ المطلق، كما قال ﷻ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: 50]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: 105].

وقد اشتمل القرآن الكريم على النُّظم والتَّشريعات التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانبًا من جوانب الحياة إلَّا كانت له نظرته الخاصَّة وتشريعه المستقلُّ بحيث ينتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لجميع مناحي الحياة، وهي تعدُّ من قبيل الإعجاز التَّشريعي سواء أخذنا في ذلك: أحكام العقوبات المختلفة من قصاص وحدود كالقصاص في النَّفس والأعضاء والجوارح، وفي الحدود كحدِّ الحرابة والسَّرقة والقذف والزنا، أو أحكام المعاملات المالية وما يحيط بها كالبيوع والرِّبا والدَّين والشَّهادة والعقود والتِّجارة والاقتصاد...، أو أحكام المعاملات الزَّوجية وما يكتنفها من خِطبة ونفقة وزواج وطلاق وحيض ونفاس وعدة...، أو أحكام الأسرة وما يتعلَّق بها من آداب وأحكام كالاستئذان وغض البصر وستر العورات والمحارم من النِّساء، وما يتعلق بثبوت النسب وتحريم التبني وأحكام اليتامى، وحقوق الأطفال من نفقة ورعاية ورضاع...، أو أحكام تنظيم المجتمع من حيث حقوق الرَّاعي والرَّعية، والالتزام بالشُّورى والعدل والأمانة والطاعة...، أو أحكام الجهاد من دفاع وغنيمة وفيء وأسارى...، أو أحكام المعاملات مع المسلمين وغيرهم داخل الدُّول الإسلامية أو خارجها.

رابعا: الإعجاز العلمي:

وهو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التَّجريبي الحديث، مع استحالة إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرَّسول ﷺ ممَّا يُظهر صدقه فيما أخبر به عن ربه ﷻ وأنَّه عين الحقِّ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: 53].

ومعلوم أنَّ القرآن الكريم كتاب هداية كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1]، إلاَّ

أنَّه يحمل في ثناياه إشارات علميَّة مختلفة لغرض التَّيقن أنَّ هذا الكتاب هو قطعًا من عند الله ويستحيل أن يكون من عند محمد ﷺ لأنَّه يحتاج إلى علوم ومعارف وآلات متطوِّرة جدًّا حتَّى يدرك حقيقة من هذه الحقائق العلمية، ومن ضمنها ما يأتي:

ففي الفضاء: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات: 47]، فقد تحدَّثت الآية عن حقيقة توسُّع الكون وتمدُّده.

في الجوِّ: قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: 125]، فالآية تبيِّن أنَّ الإنسان كلَّما صعَد إلى الأعلى في الجوِّ فإنَّه يحسُّ بضيق التَّنفس النَّاتج عن انخفاض نسبة الأكسجين.

في البحر: قال تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور: 40]، فالآية تشير إلى حقيقة علمية وهي أنَّ للبحر طبقات بعضها فوق بعض، وعند طبقة معيَّنة في أعماقه إذا أخرج الإنسان يده فإنَّه لا يمكن أن يراها مع أنَّ الشَّمس في كبد السَّماء.

في الرِّياح: قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22]، فالآية تشير إلى أنَّ الرِّياح تقوم بعمليَّة نقل حبَّات الطَّلع للتَّلقيح.

في جسم الإنسان: قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤﴾ [القيامة: 4]، فقد ثبت علميًّا أنَّ بنان الإنسان وهو بصمته لا يمكن أن يتشابه مع أيِّ بصمة إنسان في العالمين ولو كانا توأمين.

في عالم الحشرات: يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، فقد توصَّل العلم الحديث إلى أنَّ الحمض النَّووي للذُّباب هو أبسط حمض نووي، ومع ذلك فإنَّهم لن يستطيعوا أن يخلقوه، فكيف بغيرها من عظام المخلوقات!!؟

من ضوابط تفسير الآيات المتحدثة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

كثير هم الذين يبالغون في التَّدليل على ظواهر علمية من خلال القرآن الكريم فيتكلَّفون في تفسير الآية، ويحمِّلونها ما لا تحتمل، ومن هنا وضع العلماء شروطًا تضبط هذه المسالة منها:

1) ـــ موافقة اللُّغة العربية موافقة تامَّة؛ لأنَّ القرآن نزل بلسان عربي مبين، فلا بد أن يتطابق المعنى المفسَّر المعنى اللُّغوي.

2) ـــ حينما يشير القرآن إلى تلك الإشارات؛ فإنَّه يتحدث عنها بأسلوب لا يتعارض إطلاقًا مع أيِّ حقيقةٍ علميةٍ ثابتة، وهذا شيء بديهي؛ لأنَّ القرآن قول الله وهو كتاب الله المقروء، والكون فعل الله وهو كتاب الله المنظور، ويستحيل أن يتعارض قول الله مع فعل الله، وفي حين تعارضها فإنَّنا نحكم عليها بأنَّها نظرية وليست حقيقة علميَّة.

3) ـــ يجب علينا أن ننظر إلى ما في القرآن على أنَّه حقائق فما وافق من الاكتشافات الحديثة على وجه اليقين قبلناه، فمعنى هذا أنَّنا لا نريد أن نثبت القرآن بالعلم، بل إنَّ العلم هو الذي يجب أن يثبت بالقرآن، ويلتمس له الدَّليل من آيات القرآن؛ ذلك أنَّ القرآن أصدق من أيِّ علمٍ من علومِ الدُّنيا، ومن أيِّ علم ظهر في هذا العالم؛ لأنَّ مكتشف هذا العلم أو مخترعه بشر، وقائل القرآن هو الله عز وجل.

4) ـــ الحقائق العلمية الثَّابتة التي لا تقبل النَّقد ولا التَّعديل هي المعتبرة في مجال التفسير العلمي للقرآن، أمَّا النَّظريات التي لا تزال تحت التَّجربة، والخاضعة للفحص، والتَّمحيص، فلا مكَانَ لَهَا في هذا المجال فالآيات القرآنيةُ حقائق ثابتة فلا تفَّسر إلا بحقائق ثابتة.

5) ـــ يجب مراعاة معاني المفردات على النَّحو الذي كانت مستعملة فيه أثناء نزول القرآن، والحذر مما طرأ عليها من تطوُّر بعد العهد النَّبوي.

6) ـــ التَّحذير من أن يتعرَّض التَّفسير العلمي لأخبار وشؤون المعجزات.

7) ـــ يجب الجمع بين كلِّ الآيات القرآنية التي تتحدَّث عن موضوع واحد من هذه الموضوعات الكونية على طريقة التَّفسير الموضوعي؛ لأنَّ كثيرًا من الآيات لا يمكن فهمُها إلا بالإحاطة بها وتقصِّيها من جميع القرآن الكريم.

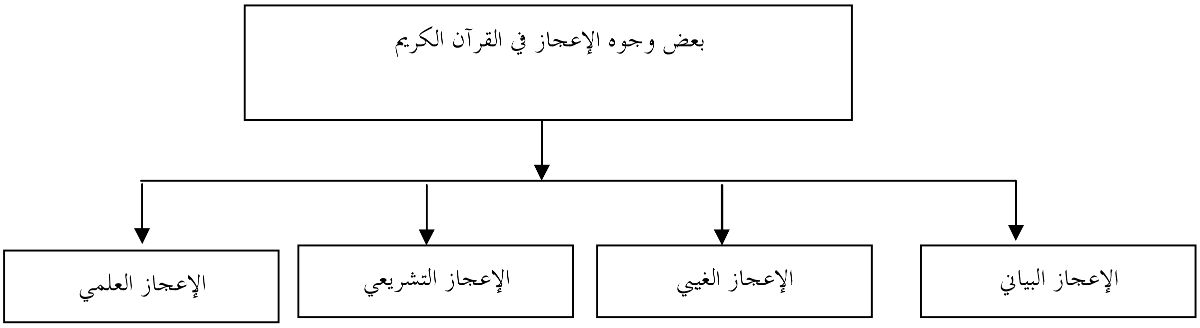

المبحث الخامس عشر: الأمثال في القرآن الكريم.

ضَرْب الأمثال في القرآن الكريم أسلوب من أساليب إعجازه البياني الذي يُبرز المعاني في قالب حسن يُقرِّبها إلى الأفهام، ويجسِّدها في صورة حيَّة تستقرُّ في الأذهان، كتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وكم من معنى جميل أكسبه التَّمثيل روعة وجمالًا، فكان ذلك أدعى لتقبُّله في النَّفس، واقتناع العقل به، وإشباع العاطفة به، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]، وقال أيضا: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21].

تعريف المَثَل:

لغة: المِثْل والمَثَل والمَثِيل، كالشِبْه والشَّبَه والشَّبيه لفظًا ومعنًى، والجمع: أَمثال، والمَثَل: الحديث. وقد مثَّل به وامتثله وتمثَّله وتمثَّل به. وقد يُعبَّر بالمَثَل والشَّبَه عن وصف الشَّيء؛ نحو قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: 35].

وقد يستعمل المِثْل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني، أيَّ معنى كان، وهو أَعمّ الأَلفاظ الموضوعة للمُشابهة؛ وذلك أَنَّ النِدّ يقال فيما يشاركه في الجوهريّة فقط، والشَّكل يقال فيما يشاركه في القَدْر والمساحة، والشِّبْه يقال فيما يشاركه في الكيفيّة فقط، والمساوي يقال فيما يشاركهُ في الكميّة فقط، والمِثْل عامّ في جميع ذلك، ولهذا لَّما أَراد الله نفي التَّشبيه من كلِّ وجهٍ خصّه بالذِّكر فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] (1).

اصطلاحا: المثل في الأدب هو: قولٌ محكي يُقصد به تشبيه حال الذي حُكي فيه بحال من قيل لأجله، أي: تشبيه مضربه بمورده، كقولهم: (قطعت جهيزة قول كلِّ خطيب)، أمَّا المثل القرآني فهو: إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة، سواء أكانت تشبيها أم قولاً مرسلا (2).

---

[1] ـ الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، حققه: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1992م، ج4، ص481.

[2] ـ ينظر: الجرمي إبراهيم محمد، معجم علوم القرآن، ط1، دار القلم، دمشق، 2001م، ص ص: 40 ـ 41.

"والمثل القرآني هو أسلوب بياني يجمع في طيَّاته نماذج حيَّة مستمَدَّة من الواقع المشاهد، لتكون هذه النَّماذج أقْيسه عامَّة للحقائق المجرَّدة، أو الأعمال المجرَّبة، أو الأمور التي لا تقع تحت الحسِّ والإدراك في الدُّنيا، والتي يترتَّب عليها أحكام شمولية، ويُبْنَى عليها صلاح أمر النَّاس في الدُّنيا والآخرة" (1).

وبهذا الإطلاق العام لمعنى المثل في القرآن الكريم نفهم معنى قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: 89].

أنواع الأمثال القرآنية:

أمثال القرآن على ثلاثة أنواع:

1) المصرَّحة: وهي ما صُرِّح فيها بلفظ المثل أو التَّشبيه، وهذا كثيرٌ في القرآن، فمن الأوَّل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: 41]، ومن الثَّاني قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: 19].

2) الكامنة: وهي التي لم يُصرَّح فيها بلفظ التَّمثيل، ولكن ألفاظه تدلَّ على معنى التَّمثيل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: 29]، فالتَّوسُّط في الشَّيء هو خير الأمور وأعدله.

3) المرسلة: هي التي أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التَّشبيه، فهي جمل تجري مجرى الأمثال، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: 81]، وقوله: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: 51]، ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: 67]، فهذه وغيرها جُمَلٌ تفيد معنى الأمثال أجاز العلماء استخدامها في المواطن التي يليق بها المقام.

فوائد الأمثال:

إنَّ الغرض من سَوْق الأمثال في القرآن الكريم يكمُن فيما يأتي (2):

[1] ـ محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، مصدر سابق، ص300.

[2] ـ ينظر: القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 297 ـ 298. وينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مصدر سابق، ص238.

1) ــــ للتَّذكرة والموعظة: فالأمثال أوْقع في النَّفس، وأبْلغ في الوعظ، وأقْوى في الزَّجر، وأقْوم في الإقناع، وقد أكْثر الله تعالى من ضرب الأمثال في القرآن وختم تلكم الآيات بوجوب التَّذكُّر والتَّفكر والتَّعقُّل والاعتبار.

2) ــــ أسلوب بليغ من أساليب التَّربية: كالحثِّ على فعل الخير، والزَّجر عن فعل الشَّرِّ، والتَّرغيب والتَّرهيب، والتَّحسين والتَّقبيح، والمدح والذَّم، فمثال التَّرغيب قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]، ومثال التَّرهيب قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: 117]، ومثال المدح قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح: 29]، ومثال الذَّمِّ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ [الجمعة: 5].

3) ــــ الاعتبار والتَّقرير: كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 29].

4) ــــ إبراز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه النَّاس، حيث ضرب الله المثل لبيان حال المنفق رياء بأنَّه لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثَّواب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: 264]، فالأمثال كما يقول السُّيوطي: "تُصَوِّرُ الْمَعَانِيَ بِصُورَةِ الْأَشْخَاصِ لِأَنَّهَا أَثْبَتُ فِي الْأَذْهَانِ لِاسْتِعَانَةِ الذِّهْنِ فِيهَا بِالْحَوَاسِّ وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْمَثَلِ تَشْبِيهُ الْخَفِيِّ بِالْجَلِيِّ والغائب بالشاهد"(1).

[1] ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص45.

المبحث السادس عشر: الأقْسَام في القرآن الكريم.

كثيرا ما تُفتتح بعض سور القرآن الكريم وخاصَّة القصار منها بالقسم، فقد كثر القسم في القرآن المكي لتناسبه مع أحوال المخاطبين؛ لأنَّهم مشركون جاحدون، كما ورد جزء منه في القرآن المدني.

والأقسام جمع قسم، وهو بمعنى الحِلْف واليمين، وسُمِّي الحِلْفُ يمينًا؛ لأنَّ العرب كان أحدهم يأخذ بِيَمين صاحبه عند التَّحالف، كما أنَّ القسم أسلوب لتحقيق الخبر وتوكيده يؤتى به لتأكيد الخبر على حسب أحوال المخاطبين، فإن كان شاكًّا متردِّدا، أو منكرًا جاحدًا فحينئذ يؤكَّد له الخبر بالقسم لإثباته وإزالة اللُّبس عنه، إذن فالقسم في كلام الله يزيل الشُّكوك، ويُفنِّد الشُّبهات، ويُقيم الحجَّة، ويؤكِّد الأخبار، ويقرِّر الحكم في أكمل صورة [1].

تعريف القَسَم وصيغته:

لغة: الأقسام: جمع قَسَم – بفتح السِّين- بمعنى الحِلف واليمين، والصِّيغة الأصلية للقسَم أن يُؤتى بالفعل "أقسم" أو "أحلف" متعدِّيًا بالباء إلى المُقسم به، ثمَّ يأتي المُقسم عليه، وهو المسمَّى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38].

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة هي:

أ- الفعل الذي يتعدَّى بالباء.

ب- والمُقسم به.

ج- والمُقسم عليه.

ولَمَّا كان القسم يكثر في الكلام، اختُصر فصار فعل القسم يحذف، ويُكتفى بالباء ثمَّ عُوِّض عن الباء بالواو في الأسماء الظَّاهرة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ١﴾ [الليل: 1]، وبالتَّاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57]، وهذا قليلٌ، أمَّا الواو فكثيرة.

---

[1] - ينظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان، مصدر سابق، ج2، ص: 303.

اصطلاحا: والقسم واليمين واحد: ويعرَّف بأنَّه: ربط النَّفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنىً معظَّم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا (1).

أنواع القسم في القرآن الكريم:

1) ــ قسم ظاهر: وهو المصرَّح فيه بفعل القسم أو ما ناب عنه، وصرَّح بالمقسم به، وهو كثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: 68].

2) ــ قسم مضمر: وهو ما لم يصرِّح فيه بفعل القسم، ولا بالمقسَم به، وإنَّما تدلُّ عليه اللاَّم المؤكِّدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 186]، والتَّقدير: والله لتبلَوُّن في أموالكم وأنفسكم (2).

المقسَمُ عليه:

والمُقْسم عليه هو الذي يُرَاد توكيده، أو تعظيمه، أو التَّنبيه على ما فيه من عظاتٍ وعِبَر، ونفع وضُرٍّ.

وقد أقسَمَ الله ﷻ في كتابه العزيز على أمور كثيرة ترجع في جملتها إلى أمرين: الأول: أصول الإيمان، والثَّاني: أحوال الإنسان.

يقول ابن القيم: "فهو سبحانه يُقسِم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها، فتارةً يقسِم على التَّوحيد، وتارة يُقسِم على أنَّ القرآن حقٌّ، وتارة على أنَّ الرَّسول حقٌّ، وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، وتارة على حال الإنسان" (3).

فالأول: وهو القسم على التَّوحيد كقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: 1 – 4].

والثاني: وهو القسم على أنَّ القرآن حقٌّ كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: 75 – 77].

---

[1] ـ القطان، مباحث في علوم القرآن، مصدر سابق، ص ص: 300 ـ 301.

[2] ـ ينظر: المجالي، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، مصدر سابق، ص244.

[3] ـ ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، حققه: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، لبنان، ص ص: 3 ـ 4.

والثالث: وهو القسم على أنَّ الرسول حقٌّ كقوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: 1 – 3].

والرَّابع: وهو القَسَم على الجزاء والوعد والوعيد كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذاريات:1 ــ6].

والخامس: القسم على أحوال الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: 1 – 4]، كما أقسم على صفة الإنسان بقوله: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: 1 – 6]. وأقسم على عاقبته وجزائه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 – 3].

مقاصد القسم وفوائده:

1. تحقيق الخبر وتوكيده، ليكون أوْقع في التَّلقِّي، وأرْجى للقَبول، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92].
2. بيان شرف المُقْسَم به، وعلوِّ قدره، حتَّى يعرف النَّاس مكانته عند الله ورفعة مترلته لديه، كالقسم بحياة النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: 72]، وكالقَسَم بالقرآن لشرفه وقدره: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: 1].
3. توجيه النَّظر إلى الآيات الكونية، والمشاهد الطَّبيعية، للتَّوصل منها إلى خالقها، والتَّأمُّل فيها تأمُّلاً يبيِّن مبلغ نعمتها، وذلك كالقسم بالسَّماء وبنائها، وبالنَّفس وخلقها، في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ [الشمس: 5]،، كما جاز له تعالى وحده أن يُقسم بمخلوقات ليبيِّن أنَّها غير جديرة بالعبادة، وإنَّما الجدير بالعبادة هو خالقها وحده كقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: 1]، فهوى بمعنى غاب وسقط، وقد نبَّهنا إلى أنَّ النُّجوم لا يجوز أن تُعبد، لأنَّها مخلوقة وعُرضة للغيبة والزَّوال، يقول السُّيوطي: "الْقَسَمُ بِالشَّيْءِ لَا يَخْرُجُ عَنْ وَجْهَيْنِ: إِمَّا لِفَضِيلَةٍ، أَوْ

لِمَنْفَعَةٍ، فَالْفَضِيلَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: 2 – 3]، وَالْمَنْفَعَةُ نَحْوَ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١﴾ [التين: 1]"(1).

صيغة: لَآ أُقۡسِمُ في كتاب الله ﷻ:

جاءت هذه الصِّيغة في كتاب الله ﷻ في عدَّة مواضع كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: 1 – 2]، وللعلماء في هذا الأسلوب توجيهات متعدِّدة منها:

أ- أنَّ "لا" جاءت لتأكيد القسم، أي: أُقسِم قسمًا مؤكَّدًا، وأصلها "لَأُقسم"؛ ولكنَّها أُشبِعَت بالمدِّ، ودليل ذلك ما جاء في أوَّل موضع ذكرت فيه هذه الصِّيغة، وهو في سورة الواقعة أنَّ الله تعالى قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ [الواقعة: 76]، وهذا أصحُّ الأقوال.

ب- أنَّ "لا" للنَّفي، والمنفي محذوف يرجع إلى كلام الكفَّار الجاحدين، كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: 1]، والمعنى: لا ليس الأمر كما تظنُّون، ثمَّ ابتدأ فقال: أقسم بهذا البلد.

ج- أنَّ "لا" زائدة، وزيادتها جارية في كلام العرب كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف: 12]، يعني أن تسجد كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75].

د- أنَّ "لا" هي لام الابتداء، والأصل "لأقسم" أو "فلأقسم" بحسب موقعها في السُّورة، وأُشبعت الفتحة فتولَّد منها ألف (2).

---

[1] ـ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج4، ص55. [والنص منقول عن أبي القاسم القشيري].

[2] ـ ينظر: الشوكاني، فتح القدير، مصدر سابق، ج 5، ص469. وينظر: فضل حسن عباس، إتقان البرهان، مصدر سابق، ج2، ص307.

فهرس المصادر والمراجع:

ـــ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ـــ أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني ، سنن أبي داود، حققه، محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

ـــ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، حققه: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة، 2001 م.

ـــ أحمد خالد شكري وآخرون، المنير في أحكام التجويد، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط11، المطابع المركزية، عمّان، 2007م.

ـــ الباقلاني أبو بكر، الإنتصار للقرآن، حققه: محمد عصام القضاة، ط1، دار الفتح، عمّان، 2001م.

ـــ البخاري محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري، حققه: محمد زهير بن ناصر الناصر،ط1، دار: طوق النجاة، 1422هـــ.

ـــ البيهقي، السنن الكبرى، حققه: محمد عبد القادر عطا، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.

ـــ ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، 1995م.

ـــ ابن تيمية، مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، لبنان، 1980م.

ـــ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه أحمد محمد شاكر وآخرون، ط2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1975م.

ـــ الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، حققه: بشار عواد معروف، الناشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998 م.

ـــ الجرمي إبراهيم محمد، معجم علوم القرآن، ط1، دار القلم، دمشق، 2001م.

ـــ الحاكم النيسابوري، المستدرك، حققه: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

ـــ ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، 1379م.
ـــ الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، حققه: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2002م.
ـــ ابن أبي داود عبد بن سليمان، المصاحف، حققه: محمد بن عبده، ط1، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، مصر، 2002م.
ـــ الرازي محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ط1،دار الكتب العلمية بيروت، 1421هـــ.
ـــ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412 هـــ.
ـــ الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
ـــ الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط3، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
ـــ الزركشي محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 1957م.
ـــ الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـــ.
ـــ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
ـــ الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 1414هـــ.
ـــ صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، ط24، 2000م.
ـــ الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط1، تحقيق: فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، 2006 م.

ـــ الطبراني سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، ط2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار ابن تيمية، القاهرة.
ـــ الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، حققه: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1992م.
ـــ القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، حققه: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1964م.
ـــ القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: الشيخ عامر عثمان ود/ عبد الصبور شاهين، دار إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1392هـ.
ـــ المارغني إبراهيم بن أحمد بن سليمان، دليل الحيران على مورد الظمآن، دار الحديث، القاهرة.
ـــ المجالي محمد خازر، الوجيز في علوم الكتاب العزيز، ط5، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 2010م.
ـــ المقدسي أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، إبراز المعاني من حرز الأماني، دار الكتب العلمية، بيروت.
ـــ النسائي أحمد بن شعيب، سنن النسائي الكبرى، تح: حسن عبد المنعم شلبي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2001م.
ـــ النووي يحي بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1392هـ.
ـــ الهيثمي نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، حققه: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، 1994 م.
ـــ الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1388هـ.
ـــ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة.
ـــ طنطاوي محمد سيد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ط1، دار نهضة مصر، القاهرة، 1998م.

ـــ عبد الجواد خلف محمد عبد الجواد، مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، دار البيان العربي، القاهرة.
ـــ عماد علي عبد السميع، التيسير في أصول واتجاهات التفسير، دار الإيمان، الإسكندرية، 2006م.
ـــ فضل حسن عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار الفرقان، الأردن، 1997م.
ـــ فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، دار الفرقان، عمّان، 2000م.
ـــ فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، ط12، 2003م.
ـــ ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، حققه: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، لبنان.
ـــ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ.
ـــ محمد بكر إسماعيل، دراسات في علوم القرآن، ط2، دار المنار، 1999م.
ـــ محمد بن حبان بن البُستي، صحيح ابن حبان، حققه شعيب الأرناؤوط، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.
ـــ محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم [تفسير المنار]، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب،1990م.
ـــ محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، 2005م.
ـــ محمد فاروق النبهان، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، ط1، دار عالم القرآن، حلب، 2005م.
ـــ محمود طحان، تيسير مصطلح الحديث، ط10، مكتبة المعارف، 2004م.
ـــ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.
ـــ مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م.
ـــ مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، ط2، دار الكلم الطيب، دمشق، 1998م.
ـــ مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق.

ـــ مصطفى مسلم، مباحث في إعجاز القرآن، ط3، دار القلم، دمشق، 2005م.
ـــ مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ط4، دار القلم، سوريا، 2005م.
ـــ ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، 1414 هـــ.
ـــ مناع بن خليل القطان، مباحث في علوم القرآن، ط3، مكتبة المعارف، 2000م.
ـــ نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، ط1، مطبعة الصباح، دمشق، 1993م.

فهرس المحتويات:

الموضوع	رقم الصفحة
الإهداء	2
المقدمة	3
المبحث الأول: مدخل تعريفي بـــ" علوم القرآن الكريم".	5
مفهوم "علوم القرآن الكريم".	5
حكم تعلُّم علوم القرآن الكريم.	6
موضوع علوم القرآن.	6
نشأة علوم القرآن.	7
التَّصنيف في علوم القرآن الكريم.	8
المبحث الثاني: القرآن الكريم.	10
التَّعريف بالقرآن.	10
أسماء القرآن الكريم.	14
أوصاف القرآن الكريم.	16
الفرق بين القرآن الكريم وبين الكتب السماوية الأخرى.	16
الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسي.	18
واجبنا تجاه القرآن الكريم.	19
المبحث الثالث: الوحي.	23
تعريف الوحي.	23
أنواع وحي الله إلى أنبيائه وصُوَره.	25
الأدلة على إثبات الوحي.	27
الرَّدُّ على من شكك في نسبة هذا الوحي إلى الله ﷻ.	27
المبحث الرابع: نزول القرآن الكريم.	30
عدد تنـــزُّلات القرآن.	30
حِكم نزول القرآن مفرَّقًا.	31
المبحث الخامس: تأريخ القرآن الكريم.	35
أولا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في الصُّدور.	35
ثانيا: جمع القرآن الكريم بمعنى حفظه في السُّطور.	37

مرحلة الكتابة زمن النَّبي ﷺ.	38
مرحلة الجمع زمن أبي بكر ﷺ.	39
مرحلة النَّسخ زمن عثمان ﷺ.	40
مرحلة التَّحسين والتَّزيين بعد زمن عثمان.	43
المبحث السادس: المكِّي والمدني.	45
تعريف المكي والمدني.	45
أهمية معرفة المكي والمدني.	46
ضوابط معرفة المكِّي والمدني.	47
تحديد السُّور المكِّية والمدنية.	48
أقسام القرآن الموضوعية، وعلاقة كلٍّ قسم بزمن النُّزول.	48
المبحث السابع: أسباب النُّــزول.	51
أنماط التَّأليف في علم أسباب النُّــزول.	51
تعريف سبب النـــزول.	52
طريق معرفة سبب النـــزول.	53
صيغة سبب النـــزول.	53
فوائد معرفة سبب النـــزول.	54
هل العبرة بعموم اللَّفظ أم بخصوص السَّبب؟	55
كيفيَّة التَّوفيق بين الرِّوايات المتعدِّدة في أسباب النُّزول.	56
المبحث الثامن: القراءات القرآنية.	59
تعريف القراءات.	59
أنواع القراءات من حيث الصِّحة.	60
الفرق بين القراءات المتواترة والشَّاذَّة.	61
شروط القراءة الصحيحة.	61
فوائد الاختلاف في القراءات الصَّحيحة.	62
كيف نتعامل مع القراءات؟	63
نبذة عن القراء.	64
المبحث التاسع: المحكم والمتشابه.	66

أقسام المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وبيان معنى كلِّ قسم.	66
اختلاف العلماء في معنى الآية السابعة من سورة آل عمران.	67
كيفية فهم آيات الصِّفات.	69
الأحرف المقطعة من المتشابه القرآني.	70
المبحث العاشر: النَّاسخ والمنسوخ.	72
تعريف النسخ.	72
كيف يعرف النسخ.	73
أقسام النَّسخ.	73
أنواع النَّسخ في القرآن.	74
أنواع النَّسخ من حيث البدل وعدمه.	75
أنواع النَّسخ من حيث التَّشديد والتَّخفيف.	76
الأسباب التي جعلت من بعض العلماء يتوسَّعون من ذكر المنسوخ.	77
المبحث الحادي عشر: علم المناسبات.	79
تعريف المناسبة.	79
فوائد معرفة علم المناسبات.	79
أهمِّية علم المناسبات.	80
أمثلة عن علم المناسبات.	81
المبحث الثاني عشر: مقدِّمات في التَّفسير.	82
تعريف التفسير.	82
نشأة التَّفسير وتطوُّره.	82
ألوان التفسير ما لها وما عليها.	85
أوَّلا: التَّفسير بالمأثور (بالرِّواية).	85
ثانيا: التَّفسير بالرَّأي (بالمعقول).	87
ثالثا: التَّفسير الموضوعي.	89
أهمُّ الشُّروط والضَّوابط التي ينبغي على المفسِّر مراعاتها في تفسيره.	89
المبحث الثالث عشر: القصص القرآني.	91
تعريف القصَّة.	91
أهمِّية القصص القرآني وفوائده.	92

خصائص القصة القرآنية.	93
ضوابط في التّعامل مع القصّة القرآنية.	94
المبحث الرابع عشر: الإعجاز في القرآن الكريم.	96
تعريف المعجزة.	96
الفرق بين معجزة النبي ﷺ ومعجزة غيره من الأنبياء عليهم السّلام.	97
مرادفات مصطلح "المعجزة" في القرآن الكريم.	97
مراحل التّحدي بالقرآن.	98
بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم.	99
من ضوابط تفسير الآيات المتحدثة عن الإعجاز العلمي في القرآن.	104
المبحث الخامس عشر: الأمثال في القرآن الكريم.	106
تعريف المثل.	106
أنواع الأمثال القرآنية.	107
فوائد الأمثال.	107
المبحث السادس عشر: الأقْسَام في القرآن الكريم.	109
تعريف القَسَم وصيغته.	109
أنواع القسم في القرآن الكريم.	110
المقسَمُ عليه.	110
مقاصد القسم وفوائده.	111
صيغة: **لَآ أُقۡسِمُ** في كتاب الله ﷻ.	112
فهرس المصادر والمراجع.	113
فهرس المحتويات.	117